

الفصل الثالث: العدول عن التشابه اللفظي

للتناسب اللفظي والصوتي

أولاً : العدول عن التشابه للتناسب اللفظي

ثانياً : العدول عن التشابه للتناسب الصوتي

ثالثاً : العدول عن التشابه لتناسب الفواصل

obeikandi.com

الفصل الثالث: العدول عن التشابه اللفظي للتناسب اللفظي والصوتي:

لم يتعرض المتكلمون على الإعجاز لما في المتشابه اللفظي من تناسب لفظي وصوتي متميز، وإنما تكلموا على ذلك في عموم القرآن الكريم، فاتفقوا على أنه راعى في ترتيب كلماته ورصف حروفه التناسب بين أصواتها مراعاة محكمة، مما جعل له إيقاعاً فريداً؛ يستعذبه - إذا قرئ القراءة الصحيحة - قارئه وسامعه، فهمه أو لم يفهمه^(١). واتفقوا أيضاً على أن أي إخلال بذلك الترتيب لكلماته وحروفه، بنقص أو زيادة أو إبدال أو تقديم أو تأخير، يذهب حلاوته وعذوبته في حس السمع وذوق اللسان، ويخل بإيقاعه وتناسب نغماته^(٢).

والحاصل مما اتفقوا عليه أن القرآن الكريم راعى في نظمه وضع كل عنصر لفظي أو صوتي فيما يناسبه من نسق لفظي وجرس صوتي، ولذلك عدل عن التشابه، فأوقع كلاً من المتشابهين موقعه الأخص به الأنسب له، وهذا مدرك محسوس لدى من صفا ذوقه من حفظة القرآن الكريم؛ فقد حكى مصطفى صادق الرافعي أن صبيان المكاتب - وكان منهم - كانوا يستعينون بهذا التناسب على اتقاء ما يعرض لهم من تداخل بين الآيات المتشابهات، وأنه لم يكن يبين لهم مواقع الكلمات المتشابهة إلا نظام كل كلمة من آيتها^(٣).

ولا يقتصر العدول عن التشابه على مراعاة تلك الصورة الإيقاعية من التناسب اللفظي والصوتي، فثمة صور أخرى لها قدر كبير من الأهمية في إعجاز القرآن، لأنها أسرار من تناسبه المعجز، لم يكشف عنها إلا أصحاب توجيه المتشابه، ولم يكشف لهم عنها إلا بالعدول عن التشابه، مما يؤكد تميز العدول بما يبناه في مقدمة الفصل السابق من التنبيه على التناسب المعجز، وكونه أقوى في الدلالة عليه، وكونه أمثل مجال تطبيقي لإيضاحه وكشف أسرار الإعجاز البياني.

(١) انظر تفصيل ذلك عند الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب: ٢: ٢١٢ حتى ٢١٨، ودراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم: ١٠١ حتى ١٠٦، والزرقاني، مناهل العرفان: ٢: ٣٥٨ حتى ٣٦٢، والبوطي، د. محمد سعيد، من روائع القرآن: ١١١-١١٢، و ١٤٤-١٤٥.

(٢) انظر: الطوفي، الإكسير: ٩٥، والزرکشي، البرهان: ٢: ١١٨-١١٩، والرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب: ٢: ٢١٧، والبوطي، د. محمد سعيد، من روائع القرآن: ١٤٤.

(٣) انظر: الرافعي، تاريخ آداب العرب: ٢: ٢٤٢ - ٢٤٣.

وقبل أن نشرع في التطبيق نستحسن الإشارة إلى أمرين؛ الأول أننا سنرتب الأمثلة هنا على صور التناسب اللفظي والصوتي مع مراعاة أنواع العدول العامة في أثنائها بقدر ما تسعفنا المادة؛ لأن هذا كما سيتضح أجدى هنا من الترتيب على أنواع العدول الذي كان أجدى في الفصل السابق وأجرى معه. والثاني أننا سنبدأ بدراسة مراعاة العدول للتناسب اللفظي ونُقَفِّي بالتناسب الصوتي، ونعقبهما بتناسب الفواصل؛ لأنه - وإن كان يندرج تحتتهما - ذو أهمية خاصة في الإيقاع القرآني تقتضي إفراده عنهما .

أولاً : العدول عن التشابه للتناسب اللفظي :

يعدل القرآن عن التشابه مراعاة لصور متنوعة من التناسب اللفظي، أبدت لنا المادة أربعاً منها؛ تناسب المشاكلة، وتناسب الموافقة، وتناسب المطلع والختام، وتجنب ثقل تكرار اللفظ. ومع أن هذا العدول قد يراعي صورة واحدة في موضع وأكثر من صورة في موضع آخر، فإننا نؤثر تتبع مراعاته لكل صورة على حدة، لانفراد كل منها بخاصة متميزة من التناسب؛ مقصودة بالعدول، مما يتيح كشف أسرار هذا التناسب المراعى به على نحو أوضح.

وجدير بالتنبيه أن بعض أمثلة هذه الصور متداخل، ولا مناص من ذلك، وإنما الذي يحدد وضع المثال في هذه الصورة أو تلك هو آية العدول.

أ - العدول عن التشابه لتناسب المشاكلة اللفظية :

لا نريد بالمشاكلة هنا مفهومها الخاص المشهور الذي هو ذكر الشيء باسم غيره لوقوعه في صحبته^(١)، وإنما نريد بها مفهومها العام الذي يشمل كثيراً من أوجه التناسب اللفظي كالتجانس والاشتقاق^(٢)، بل سنطلقها هنا لتشمل كل لفظين متناسبين؛ تقارَب شكلهما أو تماثل، اختلف معناهما أو اتفق، خلافاً لبعض أهل البلاغة الذين قيدوها باختلاف معنى اللفظين إذا كان شكلهما واحداً^(٣)، ووفقاً لأصحاب توجيه المتشابه الذين لم يقيّدوا بهذا الشرط^(٤).

(١) انظر: السيوطي، الإتقان: ٢: ٩٣٠، والجندي، علي، فن الجناس: ١٩٨، ومطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٦٢١، وأبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٢٥٥.

(٢) انظر: أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٣) انظر: الخطيب التبريزي، كتاب الكافي: ١٩٩ - ٢٠٠، ومطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٦٢٢.

(٤) انظر على سبيل المثال: درة التنزيل: ٤١٣، وملاك التأويل: ٢: ٦١٢، وكشف المعاني: ٣٢٣ و ٣٥١.

ولتناسب المشاكلة هذا خاصة نغمية أو إيقاعية، لأنه يشترط فيه التقارب بين المتناسبين؛ كوقوعهما في حدود البيت الواحد^(١). وسنجعل معيار هذا التقارب ظهور النغم، ولا سيما أن المتناسبين قد يكونان جملتين مما يجعل النغم ظاهراً في حدود الآيتين أو الثلاث.

وبالجملة فإننا نريد بتناسب المشاكلة عموم التناسب اللفظي القريب الذي تبرز فيه الخاصة النغمية أو الإيقاعية، وهو أبرز صور التناسب اللفظي التي يعدل القرآن عن التشابه مراعاة لها.

أ - العدول بالمبدلات:

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وفيها أيضاً ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وفي سورة الزمر ﴿وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) [الزمر: ٣٥] فقد عدل عن التعبير بـ ﴿مَا﴾ في الأوليين إلى ﴿الَّذِي﴾ في سورة الزمر.

وقد أشار الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانلي - إلى أن مناسبة ذلك العدول هي المشاكلة في الاسم الموصول في سياق كل من المتشابهات الثلاث، لأن سياق آتي النحل عُبر فيه عن الاسم الموصول بـ ﴿مَا﴾ فجاء التعبير ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا﴾ مشاكلاً لذلك، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون^(٣) [النحل: ٩٥ - ٩٦].

وزاد الخطيب الإسكافي أن وقوع ﴿مَا﴾ في آية النحل الثانية مناسب لـ ﴿مَنْ﴾ التي افتتحت بها الآية في قوله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

لأن «مَنْ» و «مَا» يقتربان في باب الشرط والموصول^(٤).

(١) انظر: الخطيب التبريزي، كتاب الكافي: ١٩٩، ومطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٦٢٢.

(٢) تقدم في العدول بالمبدلات اللفظية المتقاربة.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٤٠٧، والبرهان: ٣٢٢.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٤٠٧.

والأظهر من ذلك هو أن التعبير بـ ﴿مَا﴾ في آية النحل الثانية أنسب لأنه به تتشاكل هذه الآية مع التي قبلها، قال تعالى:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦-٩٧].

إضافة إلى المشاكلة في ألفاظ الاسم الموصول التي ذكرناها سابقاً ﴿إِنَّمَا﴾ و﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ و﴿مَا عِنْدَ﴾.

أما آية الزمر فعُبر عن الاسم الموصول في سياقها بـ ﴿الَّذِي﴾، فاقترضت المشاكلة العدول عما وقع في آتي النحل إلى ﴿يَأْخُذِينَ الَّذِي كَانُوا﴾ كما أشار الخطيب الإسكافي وتابعه عليه الكرمانى، قال تعالى:

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]
﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)
[الزمر: ٣٥].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المائدة ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] وفي السورة نفسها أيضاً ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢) [المائدة: ٦٨] فقد عدل عن التعبير بـ ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ إلى ﴿الْكَافِرِينَ﴾.

ومناسبة ذلك هي مشاكلة كل من المتشابهين لختام الآية السابقة له، فختام الآية السابقة لأولهما قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

﴿فَأَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

فجاء قوله تعالى رداً على موسى عليه السلام في ختام الآية التالية:

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

أما المشابهة فختمت الآية السابقة له بقوله تعالى في سياق خطابه لرسولنا ﷺ:

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٠٧، والبرهان: ٣٢٢.

(٢) انظر: ابن الجوزي، فنون الألفان: ٤٣١.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]

فاقتضى إحراز التناسب العدول إلى ما يشاكل هذا الختم في الآية التالية؛ أي آية المشابهة، فقال تعالى:

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَأِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] وفي سورة يونس ﴿وَأِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾^(١) [يونس: ١٠٧] فالعدول عن ﴿يَمَسَّكَ﴾ إلى ﴿يُرِدْكَ﴾.

والتناسب في آية الأنعام ظاهر في مشاكلة ﴿يَمَسَّكَ﴾ الثاني لـ ﴿يَمَسَّكَ﴾ الأول. ولما جاء في تمة آية يونس ﴿فَلَا رَادَّ﴾ اقتضت المناسبة العدول إلى ﴿يُرِدْكَ﴾ لما بينهما من مشاكلة لفظية.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سبع سور ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٨٧، وهود: ١١٠، والمؤمنون: ٤٩، والفرقان: ٣٥، القصص: ٤٣، والسجدة: ٢٣، وفُصِّلَتْ: ٤٥] وفي سورة غافر فقط ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾^(٢) [غافر: ٥٣] فعدل عن ﴿الْكِتَابَ﴾ إلى ﴿الْهُدَى﴾.

و«الهدى» هو «الكتاب» نفسه في بعض الأقوال، وفي بعضها: الدلائل التي أورها موسى عليه السلام على فرعون وقومه. وأياً كان، فإن الظاهر أن مراعاة التناسب اللفظي هي التي اقتضت انفراد آية غافر بالعدول عما وقع في مشابهاها، لأنه وقع فيما تلاها ما يشاكل لفظ ﴿الْهُدَى﴾، وهو ﴿هُدًى﴾ في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ هُدىً وَذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٣ - ٥٤].

ومن أمثلة العدول بالمبدلات من أسماء الله تعالى قوله عز وجل في ثلاث سور ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ويونس: ٦٠، وغافر: ٦١] وفي سورة النمل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ

(١) انظر: درة التنزيل: ١١٢، وملاك التأويل: ١: ٢٩٥ - ٢٩٦، المعاني: ١٥٧، والعقد الجميل: ٦٢.

(٢) انظر: العقد الجميل: ١٥.

لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴿١١﴾ [النمل: ٧٣] فَعُدِلَ عَنِ الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ ﴿اللَّهُ﴾ إِلَى اسْمِ الرَّبِّ ﴿رَبِّكَ﴾.

وقد وقع التعبير بالاسم الأعظم في الآيات الثلاث لمشاكلة ما في سياقها من التعبير به، ففي سورة البقرة:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَبِضْطٍ وَيَبْطِئُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿الآيات [البقرة: ٢٤٢ - ٢٤٥].

وفي سورة يونس:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ تَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [يونس: ٥٨ - ٦٠]

وفي سورة غافر:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية [غافر: ٦١].

أما آية النمل المشابهة فوق التعبير في سياقها بالربوبية، فاقتضى إحراز التناسب العدول عما وقع في الآيات الثلاث من التعبير بالاسم الأعظم إلى التعبير بـ ﴿رَبِّكَ﴾، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٣ - ٧٤].

ومن أمثلة العدول بالمبدلات الحرفية قوله تعالى في سورة الحج ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ أَلِيمٌ﴾ [الحج: ٤١] وفي سورة لقمان ﴿وَالِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢] فَعُدِلَ عَنِ اللَّامِ إِلَى ﴿إِلَ﴾.

(١) انظر: السابق: ٣١.

(٢) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٩٦.

والتعبير باللام في آية الحج لمشكلة التعبير به في عدة مواضع من سياقها، ولا سيما تلك التي جاء فيها مزيداً على أصل الكلمات زيادة واضحة، وكذلك في كونه جاراً للفظ «الله»، قال تعالى :

﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوعُ وَيَبِيعُ وُصُولُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج : ٣٩ - ٤١].

فلم يرد في هذا السياق الحرف «إلى» كما هو واضح، على حين جاء في عدة مواضع من سياق آية لقمان المشابهة، فاقتضت مراعاة التناسب أن يُعدل فيها إلى التعبير به، قال تعالى :

﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ * ﴿٢١﴾ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان : ٢١ - ٢٤].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي الرعد وفصلت ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا﴾ [الرعد : ٣، وفصلت : ١٠] وفي النمل ﴿وَجَعَلَ لَهَا رُوسًا﴾^(١) [النمل : ٦١] فعدل عن الجر بـ «في» إلى الجر باللام.

أما الجر بـ «في» فلمشكلة التعبير به في آيتي الرعد وفصلت، ففي آية الرعد قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ الآية [الرعد : ٣].

وفي آية فصلت قوله تعالى :

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكٌ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ الآية [فصلت : ١٠].

(١) انظر : ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم : ٢١٦، وقد اكتفى بآيتي النمل وفصلت.

فالمشكلة واضحة في الآيتين . أما آية النمل فخلت من حرف الجر «في»، ووقع في سياقها ما يقتضي المشكلة في اللام مع الهاء؛ وهو «لها» من «خلالها»، فكان الأنسب لذلك أن يُعدل عن التعبير بـ ﴿فِيهَا﴾ إلى ﴿لَهَا﴾، قال تعالى:

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

ولو عُبِّرَ في هذه الآية بـ ﴿فِيهَا﴾ لما تحقق التناسب.

ومن أمثلة العدول بالمبدلات الصيغية قوله تعالى في سورة البقرة ويوسف وغافر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ويوسف: ٣٨، وغافر: ٦١] وفي سورتي يونس والنمل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١) [يونس: ٦٠، والنمل: ٧٣] فعدل عن الإظهار إلى الإضمار.

ومناسبة ذلك كما نبه الخطيب الإسكافي والكرمانبي وابن جماعة هي مشكلة هذه المتشابهات لما تقدمها من آيات، بيد أنهم لم يوجهوا آيتي البقرة ويوسف. أما آية غافر فنبهوا على أن الإظهار فيها محمول على الإظهار في الآيات التي قبله، وهي قوله:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥٧)
 وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ^(٥٨)
 إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ^(٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ^(٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ^(٦١) [غافر: ٥٧ - ٦١].

(١) انظر: درة التنزيل: ٤١٢، والبرهان: ٢١٧ و ٣٢٥، وملاك التأويل: ١: ٤٩٥، وكشف المعاني:

٣٢٣، والعقد الجميل: ٣١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤١٣، والبرهان: ٣٢٥، وكشف المعاني: ٣٢٣.

ويمكن توجيه آية يوسف بنفس الوجه الذي نبهوا عليه في آية غافر، لأن الإظهار فيها للمشاكلة، ولكنه محمول على الآية التي بعده لا قبله، قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام:

﴿وَأَنْبَغْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ أَرْيَابُ مُتَفَرِّقُونَ حَبْرٌ أَمَرَ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف [٣٨ - ٤٠].

أما العدول إلى الإضممار في آية يونس فنبهوا على أنه لمشاكلة ما تقدمه من الإضممار في قوله تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

وبعد هذا بأربع آيات جاء قوله في الخامسة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(١) [يونس: ٦٠].

ومع أن الفاصل بين هاتين الآيتين أربع آيات فإنه لم يطل، لأنه مؤلف من آية قصيرة جداً وأخرى قصيرة واثنين متوسطتي الطول؛ مما يسمح باستشعار التناسب الإيقاعي ولو على ضعف. وأما العدول في آية النمل فنبه الكرمانى على أنه لمشاكلة الإضممار في قوله تعالى:

﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) [النمل: ٦١].

وهو حسن، بيد أن هذا تناسب بعيد لا يسمح بالإحساس بالتناسب الإيقاعي، لأن الفاصل هنا يزيد على عشر آيات. والمناسبة القريبة التي تمكّن من ذلك، والتي روعيت بالعدول، هي مشاكلة الإضممار في قوله ﴿صُدُّوهُمْ﴾ في الآية التي تليها، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٣ - ٧٤].

(١) انظر: درة التنزيل: ٤١٣، والبرهان: ٢١٧ - ٢١٨، وكشف المعاني: ٣٢٣.

(٢) انظر: البرهان: ٢١٨.

فلو أظهر هنا فقيل «ولكن أكثر الناس» لاختل التناسب، وكذلك في آية يونس لو كان التعبير فيها بالإظهار لغات التناسب، مما يؤكد أن العدول لمراعاة المناسبة اللفظية كما كان التعبير بالإظهار فيما شابه الآيتين لهذه المراعاة.

وقد نظر زكريا الأنصاري في تلك المناسبة التي أبداهَا مَنْ أحلنا عليهم، وأبدى وجهاً مخالفاً، فقال مبتدئاً بآية البقرة: «إنما ذكر لفظ الناس هنا وفي يوسف والمؤمن، وتركه في يونس والنمل، لأن ما في الثلاثة الأولى لم يتقدمه كثرة تكرار لفظ الناس فناسب الإظهار، وما في يونس تقدمه ذلك فناسب الإضمار لثلا تزيد كثرة التكرار، وما في النمل تقدمه إضمار الموحى إليه ومخاطبته فناسب الإضمار. وبعضهم أجاب بما فيه نظر فتركته»^(١).

ومراد به «المؤمن» سورة غافر. والحق أن النظر فيما أبداه هو لا فيما أبداه الخطيب الإسكافي وغيره، لأن التناسب فيما أبدوه وفيما استدركناه عليهم أظهر، أما ما أبداه هو من أن الإضمار في يونس لمناسبة ما تقدمه من كثرة تكرار لفظ الناس، فتناسب يصح مع التكرار المتقارب المستقبح في الكلام، أما مع المتباعد فلا، والتكرار الذي في يونس من المتباعد، فقد تكرر اللفظ في الآيات [٢، ٢، ١١، ١٩، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٤٤، ٤٤، ٥٧، ٦٠]، ولو صح أن الإضمار لمناسبة عدم زيادة كثرة التكرار، لكان المناسب في آية البقرة التي جاء فيها الإظهار أن يقع فيها اللفظ مضمراً أيضاً، لأنه تقدمها - بخلاف ما ذكر زكريا الأنصاري - رحمه الله - كثرة تكرار للفظ الناس، بل ما تقدمها من هذه الكثرة المتباعدة يفوق ما تقدم آية يونس، ويكفيها في الدلالة على ذلك الإشارة إلى مواضع التكرار في حوالي ستين آية متقدمة على آية البقرة [٢٤٣] لتكون بقدر الآيات الستين التي تقدمت آية يونس، فتلك المواضع في الآيات [١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٨٩، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٣، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٤٣، ٢٤٣]. وبهذا يتضح أن الأوجه والأظهر في التناسب الذي راعاه العدول هو ما نبه عليه الخطيب الإسكافي وغيره من المشكلة اللفظية، وأن النظر هو في الوجه الذي أبداه زكريا الأنصاري لا فيما نظر فيه من توجيهم.

(١) الأنصاري، زكريا، فتح الرحمن: ٦٢ - ٦٣.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة يونس ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] وفي سورة النحل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥] وفي سورة الروم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^(١) [الروم: ٢٣] فما في يونس والروم ﴿لَآيَاتٍ﴾ بالجمع، وعُدل عنه إلى الأفراد ﴿لَآيَةً﴾ في النحل.

أما آية يونس فالتعبير فيها بالجمع مناسب من حيث كان أكثر ما وقع في السورة من هذا التعبير مجموعاً، فقد وقع كذلك سبع مرات، ووقع مفرداً ثلاثاً^(٢)، وكلها بعيد عن الآية الموجهة، وأقربها إليها مفصول عنها بثلاث آيات، وهو في قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ إِنْ كَانَتْ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِكَأَيِّتِ اللَّهِ﴾ الآية [يونس: ٧١].

فالمناسبة هنا لا تدخل في المشاكلة على شرطنا إلا على ضعف، للتباعد بين المتناسبين، ولكننا أردنا مجرد الإشارة إليها لاقضاء توجيه العدول ذلك.

وأما آية الروم فالتعبير فيها بالجمع مناسب للتعبير به في صدور الآيات التي اكتنفتها وفي خواتمها، قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافَ السَّيْلِ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرْسِلُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [الروم: ٢٠ - ٢٥].

فالمشاكلة في ذلك بينة، ولا سيما في الختام، لأنها تجاوزت الكلمة إلى النمط ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ﴾ ومراعاة لهذه المشاكلة النمطية عُدل عن التعبير بالجمع إلى التعبير بالأفراد في آية النحل المشابهة، قال تعالى :

(١) انظر: العقد الجميل: ٣١ - ٣٢.

(٢) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ١٠٤ - ١٠٥.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِقَوْمٍ تُشْفِقُهُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ ذِي قُرْبَىٰ وَذِي بَعْدٍ خَالِصًا سَاغِيًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَخْذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٥ - ٦٩].

فلو وقع التعبير في آية النحل المشابهة تلك بالجمع ﴿لَايَتٍ﴾ لاختل التناسب اللفظي وضعف إيقاع المشاكلة، مما يؤكد أن العدول لمراعاة ذلك التناسب كما كان الجمع مناسباً في آيتي يونس والروم المشابهتين.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وفي سورة هود حكاية عن شعيب عليه السلام ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ ^(١) [هود: ٨٥] فعُدل عن ﴿الْكَيْلَ﴾ إلى ﴿الْمِكْيَالَ﴾.

أما ما عُبر به في الأنعام فجار مجرى القاعدة العامة في القرآن، لأن كل ما فيه من الأمر بإيفاء الكيل وارد بلفظ المصدر «الكيل»، كقوله في سورة الأعراف ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثَلَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] وفي الإسراء ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ [الإسراء: ٣٥] وفي الشعراء ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١].

ولم يُعبر باسم الآلة ﴿الْمِكْيَالَ﴾ إلا في آية واحدة تقدمت آية هود المشابهة، فاقترضت المشاكلة بين الآيتين المتتاليتين العدول إلى التعبير بـ ﴿الْمِكْيَالَ﴾ في الآية المشابهة، قال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام:

﴿قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُكُمْ بِحَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقُومِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ...﴾ الآية [هود: ٨٤ - ٨٥].

(١) انظر: العقد الجميل: ٨٠.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بواسطة الزوائد والنواقص اللفظية لمراعاة المشاكلة قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٢] وفي سورة النحل ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١) [النحل : ١١٤] فعدل عن نقص ﴿نِعْمَةً﴾ إلى زيادتها.

قال أبو حيان في سورة النحل : «ولما تقدم ﴿فَكَفَرْتَ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل : ١١٢] جاء هنا ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [النحل : ١١٤] ، وفي البقرة جاء ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة : ١٧٢] لم يذكر من كفر نعمته فقال ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٧٢]»^(٢). أي أنه ليس في آية البقرة ما يستدعي المشاكلة بزيادة ﴿نِعْمَةً﴾ فكان النقص مناسباً ، ولما وقع في سياق آية النحل ﴿بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ ناسب العدول عن التشابه إلى الزيادة ، لما بين ﴿بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ و ﴿نِعْمَةً لِلَّهِ﴾ من المشاكلة اللفظية ، قال تعالى :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل : ١١٢ - ١١٤] .

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف : ٤٩] وفي سورة الزخرف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف : ٦٨] فعدل إلى زيادة ﴿الْيَوْمَ﴾ في الزخرف.

أما آية الأعراف فلم يقع في سياقها ما يستدعي المشاكلة بالزيادة اللفظية ، فكان النقص أنسب.

(١) انظر : ابن المنادي ، متشابه القرآن العظيم : ١٦٩ .

(٢) أبو حيان ، البحر المحيط : ٥ : ٥٤٤ ، وما وضعناه بين قوسين هو في الأصل مما ، والآية كما ذكرنا .

وأما آية الزخرف فوقع فيما تقدمها ما يشاكل لفظ ﴿الْيَوْمَ﴾؛ وهو قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾،
فناسب العدول إلى زيادة ذلك اللفظ، قال تعالى :

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ
تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧ - ٦٨].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩] وفي سورة الملك ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(١)
[الملك: ٢٤] فعدّل إلى زيادة الفعل ﴿قُلْ﴾.

ومناسبة ذلك هي مشاكلة كل من المتشابهين لما في سياقه، لأن آية المؤمنين وقعت بين
آيتين كل منهما مفتوحة بـ ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾، فحملت الآية على ذلك، فلم يناسبها إلا نقص
﴿قُلْ﴾، قال تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وهو الذي ذرأكم في الأرض
وإليه تحشرون ﴿﴾ وهو الذي يحيي ويميت.... ﴿﴾ الآية [المؤمنون: ٧٨ - ٨٠].

أما آية الملك المشابهة فتقدمها آية مفتوحة بـ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي﴾، فاقترضت مراعاة التناسب
العدول إلى زيادة ﴿قُلْ﴾ في الآية المشابهة ليكون افتتاحها مشاكلاً لافتتاح ما تقدمها، قال
تعالى :

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي
الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٣ - ٢٤].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
﴿٧٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٠] وفي آية أخرى مشابهة من السورة نفسها ﴿قُلْ يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ﴾^(٢) [آل عمران: ٩٨] فعدّل إلى زيادة الفعل ﴿قُلْ﴾.

(١) انظر: العقد الجميل: ١١٢.

(٢) انظر: السابق: ٤٢.

ومناسبة ذلك هي مشكلة كل من المتشابهين للآية التي بعده، لأن الأول افتتحت الآية التي بعده بـ ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَبِ﴾، فكان نقص ﴿قُلْ﴾ منه مناسباً ليتشاكل افتتاح الآيتين، قال تعالى:

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَا اللَّهَ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ﴾ (٧٠) يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لَمْ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ .. ﴿ الآية [آل عمران: ٧٠ - ٧١].

أما المشابهة فافتتحت الآية التي بعده بـ ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لَمْ﴾ بزيادة ﴿قُلْ﴾، فاستدعى تناسب المشكلة اللفظية بين الآيتين العدول عن التشابه بزيادة ﴿قُلْ﴾، قال تعالى:

﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُونَ بِمَا آتَيْنَا اللَّهَ وَآلَهُ شَهِدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لَمْ تَصْدُقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ .. ﴿ الآية [آل عمران: ٩٨ - ٩٩].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧] وفي سورة المائدة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾^(١) [المائدة: ٦١] فعُدل إلى زيادة ﴿كَانُوا﴾ في المائدة.

أما آية آل عمران فليس فيها داعية مشكلة للفظ ﴿كَانُوا﴾، فكان نقصه أنسب.

وأما آية المائدة المشابهة فتلاها آيتان في ختام كل منهما ﴿كَانُوا﴾ مقترناً بـ ﴿مَا﴾، فاقتضت مراعاة المشكلة اللفظية بين هاتين الآيتين وآية المائدة المشابهة العدول عن التشابه بزيادة ﴿كَانُوا﴾، قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (١١) وَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّزَّاقُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [المائدة: ٦١ - ٦٣].

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص الحرفية قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَزَلٍ أَعْلَمَ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [النحل: ٧٠] وفي سورة الحج ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَزَلٍ أَعْلَمَ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [الحج: ٧٠].

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ١٧٦.

أَرَدَلِ الْعُمَرُ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿١﴾ [الحج: ٥] فَعُدِلَ عَنْ نَقْصِ ﴿مِنْ﴾ إِلَى زِيَادَتِهِ. ومناسبة ذلك كما نبه أبو جعفر بن الزبير أنه لم يرد في آية النحل ما يستدعي زيادة الحرف (٢)، قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤْفِكُكُمْ وَيُنَكِّلُكُم مِّن يُّرْدِي إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠].

أما آية الحج ففي سياقها ما يستدعي العدول إلى تلك الزيادة ليقع تناسب المشاكلة في النظم كما نبه أبو جعفر وبين في قوله: «سبب ذلك - والله أعلم - التناسب والسياق وتشاكل النظم ومراعاة اللفظ، ألا ترى إلى تكرار من في قوله:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَكَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُؤْفِكُ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرْدُ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥].

فقد تكررت لفظة من في هذه الآية في ستة مواضع؛ الخمسة منها قبل قوله ﴿بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ والواحدة بعدها، وكلها محرزة معناها الذي جيء بها من أجله إلا التي في قوله ﴿مِنْ بَعْدِ﴾، إذ النظم مع سقوطها ملتئم والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمها، فاستدعاها سياق آية الحج للتشاكل والتناسب المرعي في النظم. ولم يكن في آية النحل ما يستدعيها؛ إذ لم تقع في شيء من كلم الآية، فوردت حيث اقتضاها سياق النظم، ولم ترد حيث لم يرد ما يقتضيها» (٣).

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٦٨ - ٢٦٩، والبرهان: ٢٤٦، وملاك التأويل: ٢: ٦١١ - ٦١٢، وكشف المعاني: ٢٢٩ - ٢٣٠، والعقد الجميل: ١١١.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦١٢ - ٦١٣.

(٣) السابق، والصفحة نفسها، وقد وضعنا من التي قبل نقطة في الآية بين قوسين إشارة إلى سقوطها من الأصل.

وكان الكرمانى قد أشار باقتضاب شديد إلى قريب مما ذكره أبو جعفر، ولكنه اكتفى بتوجيه آية الحج، فقال: «قوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ بزيادة ﴿مِنْ﴾، لقوله ﴿مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ تُطْفِئُ﴾ [الحج: ٥] الآية»^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِّن سَيِّئِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] وفي سورة الأنفال ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٢) [الأنفال: ٢٩] فعدل عن زيادة ﴿مِنْ﴾ إلى نقصه.

قال الكرمانى مكتفياً بتوجيه آية البقرة: «في هذه السورة بزيادة مِنْ موافقة لما بعدها، لأن بعدها ثلاث آيات متواليات فيها من على التوالي، وهو ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ ثلاث مرات»^(٣) وهذه المرات الثلاث في آيتين لا في ثلاث، والمهم أن الزيادة في الآية لمشكلة ذلك اللفظ، وثمة مرات غير تلك متقدمة على الآية، وجملة هذه وتلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝٢٧١﴾
 إِنَّ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْوُواهَا لِلْفُقَرَاءِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٧٢﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ
 وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٣﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا
 فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ
 إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٠ - ٢٧٣].

أما آية الأنفال فلم يقع في سياقها لفظ «من» فزال المقتضي اللفظي المناسب لزيادته، فعدل في هذه الآية إلى نقص «من».

(١) البرهان: ٢٧١.

(٢) انظر: السابق: ١٤١.

(٣) السابق: ١٤١ - ١٤٢.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة القصص حكاية عن موسى عليه السلام ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ [القصص: ٣٧] وقال في آية مشابهة من نفس السورة في سياق خطابه لرسوله محمد ﷺ ﴿رَبِّ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ ^(١) [القصص: ٨٥] فعُبر في الأولى بالباء ﴿بِمَنْ﴾، وعُدل عنه في الآية المشابهة إلى نقصه فقيل ﴿مَنْ﴾.

والتعبير بالباء هو الأصل هنا كما ذكر الكرمانى، لأن أفعل التفضيل لا يتعدى إلى المفعول إلا بالجار ^(٢).

أما التعبير بذلك الأصل في الأولى فمناسب لما وقع في سياقها من التعدية بالباء، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمْ وَمِمَّنْ آتَيْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُهُمْ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عِقَبَةُ الْدارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٥ - ٣٧].

وقوله ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا﴾ الأصل فيه «ونجعل لكما بآياتنا سلطاناً» أي أنه عُدِّي به «نجعل»، وقيل غير ذلك ^(٣). ومع أن هذا التناسب أدخل في المشاكلة الصوتية فالإشارة إليه هنا مطلوبة لتتضح مناسبة العدول في الآية المشابهة.

وأما الآية المشابهة فوقع في سياقها ما يقتضي العدول عن التشابه والأصل إذا أُريد تحقيق التناسب اللفظي؛ وهو قوله ﴿مَنْ جَاءَ﴾ مرتين، فعُدل إلى نقص الباء، فقيل ﴿أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ﴾ ليشاكل هذا اللفظ تَيْنَكَ المرتين، قال تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص: ٨٤ - ٨٥].

(١) انظر: السابق: ٢٩٠.

(٢) انظر: السابق: ٢٩١.

(٣) انظر: الكرمانى، غرائب التفسير: ٢: ٨٦٨، والآلوسى، روح المعاني: ٢٠: ٧٨.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الصافات ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٤] وفي سورة المرسلات ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾^(١) [المرسلات: ١٨] فعدل عن زيادة ﴿إِنَّا﴾ إلى نقصه.

أما الزيادة فاستدعاها سياق آية الصافات لمشكلة ما وقع فيه من لفظ «إن» متكرراً، قال تعالى:

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ آيُنَا لَنَارِكُونَ ۖ إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مُّجْتَوِينَ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمُ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ [الصافات: ٣١ - ٣٨].

وأما آية المرسلات المشابهة فلم يقع في سياقها ما يستدعي تلك الزيادة ويطلب المشاكلة اللفظية بها، إذ لم ترد «إن» فيما قارب الآية فعدل إلى النقص.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النمل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤] وفي سورة القصص ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(٢) [القصص: ٦٩] فعبّر بزيادة «إن» واللام الداخلة على الفعل «يعلم» في النمل، وعدل إلى نقصهما في القصص.

والوجه المناسب لذلك هو مشاكلة كل آية لما تقدمها، إذ وقع فيما تقدم آية النمل زيادة «إن» واللام، ولم يقع فيما تقدم آية القصص ذلك المزيد، فكان العدول عن التشابه أنسب لتشاكل الآيتان فيما افتتحتا به، قال تعالى في سورة النمل:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٣ - ٧٤].

(١) انظر: البرهان: ٣١٥.

(٢) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٢١٦.

وقال في سورة القصص :

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: ٦٨ - ٦٩].

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص الجمالية قوله تعالى في سورة المائدة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَدَّكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠] وفي سورة إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَدَّكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾^(١) [إبراهيم: ٦] فزيد في المائدة ﴿يَنْقُومِ﴾، وعُدل إلى نقصه في إبراهيم.

ذكر الخطيب الإسكافي والكرماني أن الزيادة في المائدة لمناسبة ما تكرر من النداء فيما اكتنف الآية، فقد تكرر فيما تقدمها ﴿يَتَاهَلُ الْكَتِّبُ﴾ مرتين [المائدة: ١٤ و ١٩]، وتكرر فيما بعدها ثلاثاً؛ في قوله ﴿يَنْقُومِ أَدَّكُرُوا﴾ [المائدة: ٢١]، و ﴿يَمْوَسَّى إِنَّ فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٢]، و ﴿يَمْوَسَّى إِنَّا﴾^(٢) [المائدة: ٢٤]، وهي مناسبة بعيدة يدخل منها في المشاكلة موضعان: ﴿يَنْقُومِ﴾ و ﴿يَمْوَسَّى إِنَّ فِيهَا﴾، والمشاكلة في الموضع الأول أظهر، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَدَّكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿يَنْقُومِ أَدَّكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى الْأَرْضِ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنْ فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ...﴾ الآية [المائدة: ٢٠ - ٢٢].

أما آية إبراهيم فذكر الخطيب الإسكافي والكرماني أنه لم يكتنفها ما اكتنف مشابقتها من تكرر النداء، ولذلك لم يزد فيها ﴿يَنْقُومِ﴾^(٣). أي أنه لما زال المقتضي اللفظي المناسب لزيادتها عُدل إلى نقصها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة غافر في الإخبار عن الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧] وفي سورة الشورى ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤) [الشورى: ٥] فعُدل عن زيادة جملة ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إلى نقصها.

(١) انظر: درة التنزيل: ٩٦، والبرهان: ١٦٢، وملاك التأويل: ١: ٢٥٠ - ٢٥١، وكشف المعاني: ١٤٨، والعقد الجميل: ٥٥.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٩٨، والبرهان: ١٦٢.

(٣) انظر: المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة، والصفحة نفسها فيها.

(٤) انظر: العقد الجميل: ١٣٦.

أما الزيادة فمناسبة لقوله ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كما أشار الزمخشري ومن تابعه^(١)، قال تعالى:

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧].

ولم يقع في آية الشورى ولا فيما قاربها لفظ يشاكل ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، فعدّل إلى نقص الجملة.

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩] وفي سورة الكهف ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾^(٢) [الكهف: ٥٤] فعدّل عن تقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾ إلى تأخيره في سورة الكهف.

أما التقديم في آية الإسراء فمناسب لتقدم لفظ ﴿الْإِنْسُ﴾ على لفظ ﴿هَٰذَا الْقُرْآنُ﴾ في الآية المتقدمة كما نبه الكرمانى^(٣)، قال تعالى:

﴿قُلْ لِّنَّاسٍ أَجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [٨٨ - ٨٩].

وأما آية الكهف فتأخر عنها ما يشاكل تأخر لفظ ﴿النَّاسِ﴾؛ وهو ﴿الْإِنْسُ﴾ و﴿النَّاسِ﴾، بخلاف آية الإسراء التي تأخر عنها لفظ ﴿النَّاسِ﴾ فقط في ﴿فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾، فكان تأخير لفظ ﴿النَّاسِ﴾ في الكهف أرجح وأنسب، فعدّل إلى ذلك فيها، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [٥٤ - ٥٥].

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف: ٣: ٤١٦، والنسفي، مدارك التنزيل: ٤: ١٠٥، وأبو حيان، البحر المحيط: ٧: ٤٥١، والسيوطي، معترك الأقران: ٣: ٤٠٧ - ٤٠٨، وغير ذلك.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٧٣، والبرهان: ٢٥٠، وملاك التأويل: ٢: ٦٢٩، وكشف المعاني: ٢٣٢، والعقد الجميل: ١١٤.

(٣) انظر: البرهان: ٢٥٠.

ب - العدول عن التشابه لتناسب الموافقة اللفظية :

الموافقة مرادفة للمناسبة^(١)، وقد استعملها أصحاب توجيه المتشابه كثيراً - ولا سيما الكرمانى - بمعنى التناسب قريبه وبعيده، وسنخصصها هنا بالتناسب البعيد تمييزاً بينها وبين المشاكلة، وقد أثرنا ذلك لأن هذا النوع من التناسب لم يتكلم عليه البلاغيون البتة، ولا تعرض له القدماء ولا المحدثون إلا في آحاد المواضع من كتب التفسير، نقلوها عن أصحاب توجيه المتشابه.

ومدار الموافقة على إيقاع التناسب بين اللفظين المتباعدين لكونهما في سياق واحد، أو في قضية واحدة أو قضيتين متناسبتين، ومن هنا كان لتناسب الموافقة خاصة ترابطية أو خاصة الوحدة الفنية، وهي المقصودة من هذا التناسب الذي يراعيه القرآن في عدوله عن التشابه. وجدير بالتنبيه أن هذه الصورة من التناسب ليست لفظية محضة، ولكن الجانب اللفظي فيها مقصود بالأولية، ولولا ذلك لما اختير التوافق اللفظي كما سيتبين.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة الزمر ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٨] وفي سورة الجاثية ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢) [الجاثية: ٣٣] فعُدل عن ﴿كَسَبُوا﴾ إلى ﴿عَمِلُوا﴾.

ومناسبة ذلك كما نبه الخطيب الإسكافي هي الموافقة اللفظية في سياق كل من المتشابهين، لأن آية الزمر كما بين جاءت عقب اعتراض طويل بينها وبين آية أخرى عبّر فيها عن العمل بلفظ الكسب، وبهذا اللفظ أيضاً عبّر فيما تلا الآية المتكلم فيها، وكانت الآيات الثلاث

(١) انظر: الدمنهوري، أحمد، حلية اللب: ١٣٤، نقلاً عن مطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٦٥٦.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤٠٨، والبرهان: ٣٢٢، وملاك التأويل: ٢: ٨٣٠، والعقد الجميل: ٦٠.

في قضية واحدة، فجاء التعبير في الآية المتكلم فيها بـ ﴿كَسَبُوا﴾ واقعاً موقعه المناسب، قال الخطيب الإسكافي: «إنما جاء قوله ﴿كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨] في هذه السورة بناء على ما وقع الخبر به عن الظالمين في هذه الآية التي قبل هذه حيث يقول ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٢٤ - ٢٥] ثم اعترضت آيات تؤكد ما على الظالمين من الوعيد وتقوي ما للمصدقين من الوعد، إلى أن انتهت إلى ذكر هؤلاء الظالمين الذين قيل لهم ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤] فقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٧ - ٤٨] فكان المعنى: ولو أن للظالمين الذين تقدم ذكرهم ما في الأرض ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب، ثم قال ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨] أي الجزاء على ما كسبوا من سيئاتهم كما قيل لهم: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤] أي [جزاء]، ثم أتبعه ذكر الكسب في الآيات التي بعدها في قوله ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٥١ فَاَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥٠ - ٥١] (١).

أما آية الجاثية فواردة في قضية واحدة مع آيات سبقتها عُبر فيها بلفظ العمل، فكان المناسب العدول عن التشابه إلى ﴿عَمِلُوا﴾ كما بين الخطيب الإسكافي بقوله: «وأما الآية التي في سورة الجاثية فالطريق في اختيار ﴿عَمِلُوا﴾ فيها كالطريق في اختيار ﴿كَسَبُوا﴾ في سورة الزمر، لأن قبلها قوله تعالى ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] وبعده ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٢٩ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢٩ - ٣٠] وتبع ذلك قوله ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية: ٣٣] [فبني ﴿عَمِلُوا﴾] على ما سبق، كما بنى هناك ﴿كَسَبُوا﴾ على ما تقدمه (٢).

(١) درة التنزيل: ٤٠٨ - ٤٠٩، ووقع في الأصل جزاؤه بالضم، والصواب ما ذكرنا.

(٢) السابق: ٤٠٩، ووقع في الأصل عملوا فبنى، وهو خطأ مطبعي بين.

وقد لخص الكرمانى توجيه الخطيب الإسكافى؛ فقال مبتدئاً بآية الزمر: «لأن ﴿مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨] في هذه السورة وقع بين ألفاظ الكسب؛ وهو ﴿ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿وَيَذَاقُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨]، وبعده ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠]، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٥١]، ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٥١]. وما في الجاثية وقع بين ألفاظ العمل؛ وهو ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨ و ٢٩]، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٣٠]، وبعده ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [الجاثية: ٣٣]، فخصت كل سورة بما اقتضاه طرفاه»^(١) ولكن لا بد من اشتراط القضية الواحدة كما سبق بيانه.

وقريب من المثال السابق قوله تعالى في سورة النحل ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [النحل: ٣٤] وفي سورة الزمر ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾^(٢) [الزمر: ٥١] فعُدل عن ﴿عَمِلُوا﴾ إلى ﴿كَسَبُوا﴾.

والإخبار في كل من المتشابهين عن مصير الظالمين، ولكن عُبر في سياق الأول عن اجتراحهم السيئات بلفظ العمل، فجاء التعبير بـ ﴿عَمِلُوا﴾ مناسباً لذلك، وعُبر في سياق الثاني بلفظ الكسب، فاستدعى هذا العدول عن ﴿عَمِلُوا﴾ إلى ﴿كَسَبُوا﴾ مراعاة لتناسب الموافقة اللفظية؛ هذا ما نبه عليه أبو جعفر بن الزبير، فقال أولاً «وجه ذلك - والله أعلم - استدعاء التناسب في كل من الموضعين. وقد ورد قبل آية النحل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨] ثم صُرف الكلام إلى كفار العرب في توقفهم عن الإيمان، فقليل ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٣٣] ثم قيل ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٣٣] والمراد: من قال ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] ومن كان على مثل حالهم، فقليل بناء على قولهم ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨] ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [النحل: ٣٤] وتناسب هذا أبين تناسب»^(٣).

(١) البرهان: ٣٢٢ - ٣٢٣، وانظر أيضاً: ٣٣٣.

(٢) انظر: البرهان: ٢٤٣، وملاك التأويل: ٢: ٦٠١، والعقد الجميل: ٦٠.

(٣) ملاك التأويل: ١: ٦٠١ - ٦٠٢.

وكان الكرمانى قد ذكر قريباً من ذلك في توجيه الآية وزاد عليه شيئاً، فقال: «وُحِصَتْ هذه السورة بالعمل لموافقة ما قبله؛ وهو ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨] ولموافقة ما بعده، وهو قوله ﴿وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١]»^(١). والاختصار على الآية الأولى أحسن، لأن الظاهر أن قوله ﴿وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ غير داخل في قضية ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ ولا مرتبط به، وإلا لكان التناسب يقتضي التعبير في آية الزمر بـ ﴿مَا عَمِلُوا﴾ أيضاً لا العدول إلى ﴿مَا كَسَبُوا﴾؛ لأنه وقع في الزمر ﴿وُوفِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠] بلفظ العمل.

وقال أبو جعفر بن الزبير في آية الزمر المشابهة التي وقع فيها العدول: «وأما آية الزمر فقد وقع قبلها قوله ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٧] إلى قوله ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٧ - ٤٨] وبعد هذا ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠] ثم قال ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ [الزمر: ٥١] يعني كفار العرب ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٥١]»^(٢).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] وفي سورة الأعراف ﴿وَإِذْ أُنَجِّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءُكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾^(٣) [الأعراف: ١٤١] فعدل عن التعبير بالتذبيح إلى التعبير بالتقتيل.

أما التعبير بتذبيح الأبناء فهو المطرد فيما تكرر من تلك القصة في القرآن الكريم، كقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿إِذْ أُنَجِّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ﴾ [إبراهيم: ٦] وفي سورة القصص ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا

(١) البرهان: ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٦٠٢.

(٣) انظر: البرهان: ١٢٢، وملاك التأويل: ١: ٥٣، وكشف المعاني: ٩٥، والعقد الجميل: ١٠.

شَيْعًا يَسْتَضِعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْيَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴿[القصص: ٤] إضافة إلى ما وقع في سورة البقرة.

وأما العدول إلى التعبير بـ ﴿يُقْتُلُونَ﴾ في سورة الأعراف فاقترضته مناسبة ما حكي من قول فرعون بذلك اللفظ - وهو قوله ﴿سَنُقْلِلُ﴾ - في القصة نفسها كما نبه ابن الزمكاني [ت ٦٥١ هـ] - وتابعه الزركشي - وذلك في آية يفصلها عن الآية الموجهة حوالي أربع عشرة آية، وهي قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَبَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقْلِلُ أُنْيَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾^(١) [الآية [الأعراف: ١٢٧].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة طه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣] وفي سورة الزخرف ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾^(٢) [الزخرف: ١٠] فعُدل عن التعبير بالسلوك إلى التعبير بالجعل.

ذكر الكرمانى أن التعبير بالسلوك مع السبل أكثر استعمالاً، فخصت سورة طه به كما ذكر^(٣). ونبه هو وأبو جعفر بن الزبير على أن العدول إلى ﴿جَعَلَ﴾ في الزخرف لموافقة ما اكتنفه من التعبير بالجعل في قوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

وفي قوله:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ اللَّكِّ وَاللَّعْمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾^(٤) [الزخرف: ١٢].

وزاد الكرمانى على آيات الموافقة قوله تعالى:

(١) انظر: ابن الزمكاني، المجيد: ١٤٤، والزركشي، البرهان: ١: ١٢٠.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٨٤، والعقد الجميل: ٥.

(٣) انظر: البرهان: ٢٦٣.

(٤) انظر: السابق، والصفحة نفسها، وانظر أيضاً: ملاك التأويل: ٢: ٦٨٥.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

وقوله :

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

وقوله في قصة إبراهيم عليه السلام :

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾^(١) [الزخرف: ٢٨].

وهذه الآيات التي زادها الكرمانى لا تدخل في قضية آية العدول، فالإقتصار على الآيتين اللتين ذكرهما أبو جعفر أيضاً أحسن، لأنهما في نفس سياق آية العدول وفي قضيتها؛ إذ الثلاث في الامتنان بالنعم. على أنه يمكن إدخال الآيتين الأوليين من الثلاث التي زادها الكرمانى باعتبار أنهما من باب مقابلة تلك النعم بالكفران. وأياً كان، فالمقتضى للعدول هو مناسبة ألفاظ الجعل في السياق، فلم يكن يحسن هنا التعبير بالسلوك.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] وفي سورة يونس ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٢) [يونس: ١٧] فعُدل عن التعبير بـ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ إلى التعبير بـ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾.

أما التعبير بـ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ في آية الأنعام فمناسب لقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في أولها كما نبه الخطيب الإسكافي وتابعه جماعة^(٣)، قال تعالى :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وأما العدول إلى التعبير بـ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ في آية يونس فاقترضته موافقة ما قبله من قوله ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما نبه الخطيب الإسكافي وغيره، وذلك في الآية التي أخبر الله بها عن إهلاك الأقوام السابقين :

(١) انظر: البرهان: ٢٦٣.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١١٤، والبرهان: ١٦٧، وملاك التأويل: ١: ٢٩٩ - ٣٠٠، وكشف المعاني: ١٥٨، والعقد الجميل: ٢٠.

(٣) انظر: درة التنزيل: ١١٥، والبرهان: ١٦٧، وكشف المعاني: ١٥٨، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٦٢.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

وقال بعد ذلك مخاطباً المعاصرين لرسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] واستمر الكلام في خطابهم إلى أن قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧].

فناسب العدول إلى التعبير بـ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ لموافقة التعبير بهذا اللفظ في الإخبار عن إهلاك الأقسام السابقين، لأن الآيتين في قضيتين متناسبتين، وهو ما أشار إليه الخطيب الإسكافي بأن ذلك العدول ليُعلم أن سبيل المخاطبين في الضلال سبيل الأقسام السابقين الذين أخبر عن إهلاكهم بـ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة القصص ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦] وفي سورة السجدة ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٢) [السجدة: ٣] فعدل عن التعبير بـ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى التعبير بـ ﴿يَهْتَدُونَ﴾.

والوجه هو الموافقة اللفظية بين قضيتين متناسبتين في كل من السورتين، لأن ما في سورة القصص خطاب لرسولنا محمد ﷺ؛ خوطب به بعد الإخبار عن موسى عليه السلام وقومه بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

فعلل سبحانه إيتاء موسى عليه السلام الكتاب بتذكر قومه؛ أي اتعاظهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فناسب تعليل إنذار محمد ﷺ قومه بتذكرهم، فقال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أما في سورة السجدة فأخبر سبحانه عن أنه جعل الكتاب الذي آتاه لموسى عليه السلام هدى لقومه، قال تعالى:

(١) انظر: درة التنزيل: ١١٦، والبرهان: ١٦٧، وانظر أيضاً: ملاك التأويل: ١: ٣٠٣، وكشف المعاني: ١٥٨ - ١٥٩. والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٦٢.
(٢) انظر: ابن الجوزي، فنون الأفتان: ٤٤٨.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِٗ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ يَأْتِرْنَ لِمَا صَبَرُوا﴾ الآية [السجدة: ٢٣ - ٢٤].

فاقتضى تناسب الموافقة اللفظية العدول إلى ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في تعليل إنذار محمد ﷺ وقومه، فقال تعالى:

﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الكهف في قصة كافر منكر للبعث ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٦] وفي سورة فصلت في وصف حال الإنسان المنكر للبعث ﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِی وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾^(١) [فصلت: ٤٩ - ٥٠] فعُدل عن التعبير بـ ﴿رُدِدْتُ﴾ إلى التعبير بـ ﴿رُجِعْتُ﴾.

والوجه المناسب لذلك هو الموافقة اللفظية بين قضيتين متناسبتين في كل من السورتين؛ ففي الكهف حُكي عن الكافر إنكاره للبعث بلفظ الرد لموافقة ما حُكي في قصة ذي القرنين من التعبير عن البعث بلفظ الرد، مع أن الفاصل بين هذين اللفظين أكثر من خمسين آية، قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا﴾ [الكهف: ٨٧].

أما في فصلت فُعبر عن البعث بلفظ الرجوع في آية مفصولة عن آية العدول بحوالي ثلاثين آية، وهي الآية التي أخبر تعالى فيها عن المقابلة بين الكفار وجلودهم التي أنطقها سبحانه لتشهد عليهم، قال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

فاقتضى تناسب الموافقة اللفظية في هذه السورة أن يُعدل عن ﴿رُدِدْتُ﴾ إلى ﴿رُجِعْتُ﴾ فيما وصف به حال المنكر للبعث، فقال تعالى:

(١) تقدم في العدول بالمبدلات اللفظية المتقاربة.

﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [فصلت: ٥٠].

ويؤكد هذه المناسبة أنه لم يُعبر عن البعث في هذه السورة إلا بهذين اللفظين المتناسبين ﴿تُرْجَعُونَ﴾ و﴿رُجِعْتُ﴾، كما أنه لم يعبر عنه في سورة الكهف إلا باللفظين المتناسبين ﴿زُودْتُ﴾ و﴿يُرْدُّ﴾، على ما بين كل اثنين من طول الفاصل.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الرعد ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] وفي سورة طه ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(١) [طه: ١١٣] فعدل عن التعبير بـ ﴿حُكْمًا﴾ إلى التعبير بـ ﴿قُرْآنًا﴾.

أما التعبير بالحكم في آية الرعد فمناسب لـ ﴿يَحْكُمُ﴾ و﴿لِحُكْمِهِ﴾ في قوله تعالى مما تلا الآية:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبَرٍ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

فهذه الآية وقوله ﴿أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا﴾ في سياق واحد.

أما آية طه فهي متصلة بأول السورة الذي جاء فيه قوله سبحانه:

﴿مَا أَنزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢].

فهذا خطاب لرسول الله محمد ﷺ، واستمر الخطاب إلى قوله ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩]، ثم اعترضت قصة موسى عليه السلام وقومه^(٢)، ولما انتهت وُصل خطاب الله تبارك وتعالى لرسوله محمد ﷺ بقوله ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩] واتصلت بهذا آيات تؤكد جزاء المعرض عن الذكر؛ أي القرآن، وتخبر عما يجري يوم القيامة، وعما يلقاه كل من الظالم والمؤمن؛ كل ذلك على سبيل الاعتراض، ثم وُصل قوله ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩] السابق بقوله تعالى عطفاً عليه:

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٦٩، والعقد الجميل: ١٠٤.

(٢) انظر التنبيه على ذلك الاعتراض في ملاك التأويل: ٢: ٥٧٠ - ٥٧١.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(١) [طه: ١١٣].

فصار قوله ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣] متصلاً اتصالاً وثيقاً بأول السورة ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢] وجرياً - مع كثرة الاعتراض وطوله؛ إذ هو أكثر من مئة آية - في سياق واحد، فلم يكن ليناسب هنا إلا العدول عن ﴿حَكَمًا﴾ إلى ﴿قُرْآنًا﴾، ولا سيما أن آية طه المشابهة لم تتصل بما قبلها فحسب على هذا الوجه المشروح، بل اتصلت أيضاً بآية جاءت بعدها ورد فيها لفظ «القرآن» وكانت هذه الآية متصلة بأول السورة أيضاً، قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَوْنَ أَوْ يُحَذِّرُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ...﴾ الآية [طه: ١١٣-١١٤].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي الحجر والذاريات ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥، والذاريات: ١٥] وفي سورة المرسلات ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾^(٢) [المرسلات: ٤١] فعدل عن التعبير بـ ﴿جَنَّاتٍ﴾ إلى التعبير بـ ﴿ظِلِّلٍ﴾.

أما التعبير بـ ﴿جَنَّاتٍ﴾ فهو المطرد في القرآن الكريم فيما يشبه النمط الوارد في الحجر والذاريات، كقوله تعالى في سورة الدخان ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١-٥٢] وفي سورة القمر ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤] وقوله في سورة القلم ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾^(٣) [القلم: ٣٤].

وقد انفردت آية المرسلات بالعدول عن مشابهاها النمطية وغير النمطية لمناسبة لفظية في السورة؛ اقتضاها ورود لفظي ﴿ظِلٍّ﴾ و﴿ظِلِّلٍ﴾ في الإخبار عما يقال للمكذابين يوم القيامة، قال تعالى:

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ أَنْظِلُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْظِلُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِّيلٍ وَلَا يَغْنَى مِنَ اللَّهِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات: ٢٨-٣١].

(١) انظر التنبيه على أن كذلك معطوف على كذلك في روح المعاني للآلوسي: ١٦: ٢٦٦.

(٢) انظر: العقد الجميل: ١٠٦ - ١٠٧.

(٣) انظر: السابق: ١٠٧.

فناسب في الإخبار عن المتقين الذين هم أضداد المكذبين استعمال اللفظ نفسه، فعدل عن ﴿جَنَّتِ﴾ إلى ﴿ظَلَّلِ﴾، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

ومن أمثلة العدول بالمبدلات التعقيبية قوله تعالى في سورة القصص مخبراً عن فرعون وجنوده ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] وفي سورة الذاريات ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾^(١) [الذاريات: ٤٠] فالعدول عن ﴿فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ إلى ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

أما تعقيب آية القصص بما عقت به فمناسب لما وقع في قصة موسى عليه السلام وفرعون من وصف قوم فرعون بالظلم، قال تعالى في الإخبار عن موسى عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

ثم قال في حكاية خطاب شعيب لموسى عليهما السلام:

﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

ثم قال سبحانه بعد خمس عشرة آية تعقيباً على القصة وخطاباً لنبيه محمد ﷺ:

﴿فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

فكان مناسباً في اللفظ لما تقدم.

وأما العدول إلى التعقيب بـ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ في الذاريات فاستدعاه التناسب اللفظي بينه وبين قوله ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤] لأنه تعالى أخبر عن فرعون أنه رمى موسى عليه السلام بالسحر والجنون، قال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكُوعًا وَقَالَ سَحَرُ أَوْ يُجْنُونُ﴾ [الذاريات: ٣٨ - ٣٩]، ثم عقت القصة بقوله تبارك وتعالى مخبراً عن فرعون وجنوده:

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٢١٧.

وأُتبع ذلك بـقصاص عاد وثمود ونوح عليه السلام في ست آيات، ثم ببعض دلائل قدرته في ثلاث، ثم بالتحذير من الإشراك وبالنداء إلى الطاعة في آيتين؛ كل ذلك على سبيل الإيجاز، ثم سَلَّى نبيه محمداً ﷺ عن تكذيب قومه له بقوله ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [الذاريات: ٥٢] فارتبط قوله تعالى هنا ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ بما أخبر به سابقاً عن فرعون في قوله ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [الذاريات: ٣٩] وبهذا الرابط اتصلت قصة فرعون بخطابه تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك نوسب بين وصف فرعون - الذي قاد قومه إلى الهلاك - بـ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، وبين الحكم على نبينا محمد ﷺ - الذي قاد قومه إلى الرشاد - بنفي اللوم عنه في ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، فقال تعالى يأمر نبيه ﷺ بالتولي عن قومه بعد أن أبوا إلا عناداً وطغياناً:

﴿نَقُولُ عَنْهُمْ فَأَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤].

فلمناسبة ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ عُدل عن تعقيب آية الذاريات بـ ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ الذي وقع في القصص إلى تعقيبها بـ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

ومن أمثلة العدول بالمبدلات الصيغية قوله تعالى في سورة يونس ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١] وفي سورة سبأ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) [سبأ: ٢٤] فُعْدِلَ عن التعبير بصيغة المفرد إلى صيغة الجمع.

قال أبو جعفر بن الزبير: «الإفراد الوارد في يونس محصل للمعنى مع الإيجاز، فورد هنا على ما يجب. وأما الوارد في سورة سبأ فروعي فيه ما تقدم من قوله تعالى ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] والمراد بذلك نفي الشركاء له تعالى، ثم عاد الكلام إلى ذلك أيضاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٤] على الجمع مناسبة لما تقدم، إذ الآية قبل وهذه في قضية واحدة؛ هي نفي الشركاء والأنداد، فجاءت على ما يناسب التي قبلها»^(٢). ولهذه المناسبة عُدل عن صيغة الإفراد الواردة في يونس.

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٤٨٥، والعقد الجميل: ٩٤.

(٢) ملاك التأويل: ١: ٤٨٥ - ٤٨٦.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] وفي سور يوسف و ص والتكوير ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١) [يوسف: ١٠٤، و ص: ٨٧، والتكوير: ٢٧] والمراد بـ ﴿هُوَ﴾ القرآن، والعدول في الظاهر عن التعبير بصيغة المؤنث ﴿ذِكْرَى﴾ - وهي اسم مصدر للتذكير^(٢) - إلى صيغة المذكر ﴿ذَكَرَ﴾.

أما التعبير بصيغة المذكر فهو المطرد في القرآن الكريم فيما يشبه النمط المذكور، كقوله تعالى في سورة يس ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] وفي سورة القلم ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣) [القلم: ٥٢].

وأما العدول إلى صيغة المؤنث فنبه الكرمانى وغيره على أنه لمناسبة ما تقدم في هذه السورة من لفظ ﴿بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ و﴿وَلَكِنْ ذِكْرٌ﴾^(٤) في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٨ - ٦٩].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَاى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٣٨] وفي سورة طه ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَاى فَلَا يَصِلُ﴾^(٥) الآية [طه: ١٢٣] فعدل عن التعبير بـ ﴿تَبَعَ﴾ المجرد إلى ﴿اتَّبَعَ﴾ المزيد.

والمتشابهان في قصة آدم وزوجه عليهما السلام وإبليس، والخطاب لهم بعد أمرهم بالهبوط إلى الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨] والمراد بالهدى رسول يبعثه الله إلى الذرية وكتاب ينزله عليهم^(٦).

أما آية البقرة فالتعبير فيها بصيغة المجرد مناسب للفظ ﴿تَبِعُوا﴾ في قوله تعالى بعد أكثر من مئة آية مخاطباً رسوله ﷺ:

(١) انظر: البرهان: ١٧٢، وملاك التأويل: ١: ٣٣٠، وكشف المعاني: ١٦٣، والعقد الجميل: ٦٩.

(٢) انظر: الألوسي، روح المعاني: ٧: ٢١٨.

(٣) انظر: العقد الجميل: ٦٩.

(٤) انظر: البرهان: ١٧٢، وكشف المعاني: ١٦٣، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٩٠٦.

(٥) انظر: البرهان: ١٢١، وملاك التأويل: ١: ٤٥، وكشف المعاني: ٩٣، والعقد الجميل: ٩.

(٦) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٢٨.

﴿وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فَمَلَّتْ﴾ الآية [البقرة: ١٤٥].

فواضح أن قوله هذا في قضية مناسبة لقضية الآية :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وأما آية طه المشابهة فقال فيها الكرمانى - وتابعه الزركشي - : « وإنما اختار في طه ﴿اتَّبَعَ﴾ موافقة لقوله تعالى قبلها ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨] ^(١). بيد أن قوله ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ وارد في الإخبار عن يوم القيامة، فلا صلة له بقوله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾. والظاهر أنه عُبر بهذا المزيد هنا عدولاً عما وقع في البقرة لمناسبة لفظ ﴿مَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ فيما حكاه الله من قول موسى وهارون عليهما السلام لفرعون، والوارد قبل آية العدول بحوالي ثمانين آية، وهو :

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: ٤٧].

فهذه الآية في قضية مناسبة أتم مناسبة لقضية الآية المشابهة :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [طه: ١٢٣].

مع طول الفاصل بينهما، لأن القضية في الآيتين إتيان الهدى الذي هو الرسول والكتاب كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وتلك هي القضية أيضاً في آيتي البقرة السابقتي الذكر، فكما نوسب هناك بين اللفظين الواقعيين في الآيتين ﴿تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨] و ﴿تَتَّبِعُوا فَمَلَّتْ﴾ [البقرة: ١٤٥] نوسب هنا - أي في طه - بين اللفظين الواقعيين في الآيتين أيضاً ﴿اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: ٤٧] و ﴿تَبِعَ هُدَايَ﴾ [طه: ١٢٣] ولم يكن لهذا التناسب أن يتحقق هنا إلا بالعدول عن ﴿تَبِعَ﴾ إلى ﴿اتَّبَعَ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران مخبراً عن حوارى عيسى عليه السلام ﴿قَالَ الْخَوَارِئُوتُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢] وفي سورة المائدة في الإخبار عنهم أيضاً : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِئُوتِ أَنَّ ءَامِنُوا بِى وَرَسُولِى قَالُوا ءَامَنَّا

(١) البرهان: ١٢١، وانظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١: ١١٥.

وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»^(١) [المائدة: ١١١]. فُعدل عن حذف النون في ﴿يَأْتَا﴾ إلى ردها في ﴿يَأْتَانَا﴾ على الأصل.

أما آية آل عمران فالحذف فيها مناسب للحذف في قوله فيما بعد ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] للموافقة اللفظية مع التناسب في القضية، لأن قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

هو حكاية عن حوار عيسى عليه السلام كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهم أتباعه وأنصاره، وقوله فيما بعد ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هو أمر لأتباع رسول الله ﷺ وأنصاره؛ أمروا بأن يردوا به على أهل الكتاب الذين تولوا عن الإيمان، والمناسبة بين أتباع النبيين، ولذلك نوسب بين اللفظين، وقد جاء ذلك الأمر في قوله تعالى:

﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُونَ عَذَابَ اللَّهِ سَعَةً إِنِ هُمْ إِلَّا فِتْنَةٌ لِلَّهِ وَلَئِنْ يَدْعُوا إِلَىٰ شَيْءٍ فَلَا يَخُذْ بِبَعْضِهِ بَعْضًا أَزِبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولم يقع في سورة المائدة ما يستدعي مثل تلك الموافقة اللفظية، فُعدل عن الحذف إلى التمام، فقيل ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص قوله تعالى في سورة القصص ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠] وفي سورة الشورى ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٢) [الشورى: ٣٦] فُعدل عن زيادة ﴿وَزَيَّنَّهَا﴾ إلى نقصه في الشورى.

ووجه ذلك وقوع لفظ مناسب لـ ﴿وَزَيَّنَّهَا﴾ في القصص - وهو ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩] - وعدم وقوع مثل ذلك في الشورى كما نبه أبو جعفر بن الزبير - وتابعه السيوطي مختصراً - قائلاً : «سورة القصص تضمنت ذكر قارون وما أُوتيه من المال الذي هو زينة

(١) انظر: درة التنزيل: ٦٩، والبرهان: ١٤٩، وملاك التأويل: ١: ١٦٥، وكشف المعاني: ١٣٠، والعقد الجميل: ٤١.

(٢) تقدم في العدول بزوائد ونواقص الاسم.

الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَعَالِمُهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَازَهُمْ لِنُورٍ بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] ثم أخبر تعالى عن زهوه واختياله بماله وظنه استحقاقه إياه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩] حتى قال من غفل عن آخرته ولم يعلم [ما أعد الله] فيها للمؤمنين ﴿يَلْبِثَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَتْرُونَ﴾ [القصص: ٧٩] فقدم سبحانه للمعتبر من عباده المؤمنين وتبنيها للغافلين لتحصل السلامة للسعداء ممن عصم مما ابتلي به قارون، فقال تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٦٠] أي للمؤمنين ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠] وقد أخبرهم سبحانه في موضع آخر أن الدنيا وحياتها غرور، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار. وبعد تحذير المؤمنين وردت قصة قارون، فالتحمت الآية بتلك القصة، وقيل هنا ﴿وَزِينَتَهَا﴾ [القصص: ٦٠] كما قيل في تلك ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩] ومن الذي يعدل عما عند الله سبحانه إلى ما جعله الله تعالى سبباً لإهلاك المشركين! فتناسب هذا كله وتلاءم. ولم يقع في آية الشورى ذكر ﴿وَزِينَتَهَا﴾ إذ لم يرد فيها ما ورد هنا مما استدعى هذه المناسبة^(١).

ومما يتعلق بالمثال السابق قوله تعالى في سورة القصص في الإخبار عن قارون باغتراره بكثرة ماله ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] أي أوتيت هذا المال الكثير بمعرفة مني ومهارة لي في وجوه الكسب والتجارة وباستحقاقي إياه، ولولا رضا الله عني ومعرفته باستحقاقي وفضلي ما أعطاني هذا المال^(٢). وقال سبحانه في سورة الزمر في الإخبار عن جحد الكافر إذا أعطاه نعمة بعد ضرر ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] فعدل عن زيادة ﴿عِنْدِي﴾ إلى نقصه في الزمر.

وزيادة ﴿عِنْدِي﴾ في قصة قارون لمناسبة وقوع اللفظ نفسه في قوله تعالى قبل ذلك بشماني عشرة آية: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ الآية

(١) ملاك التأويل ٢: ٧٥٩-٧٦٠، وما وضعناه بين قوسين من قوله ما أعد الله هو في الأصل ما أعدله، وليس بمستقيم، فلعل صوابه ما ذكرناه. وانظر متابعة السيوطي لأبي جعفر في معترك الأقران: ٣: ٣٤٢-٣٤٣.

(٢) انظر: الزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٣٩٦، والأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ٢: ١٦٩.

(٣) انظر: العقد الجميل: ١٣٠.

[القصص ٦٠] وذلك لما بين قوله هذا وبين قصة قارون من الترابط على نحو ما بين أبو جعفر ابن الزبير في المثال السابق.

وعُدل عن تلك الزيادة إلى النقص في سورة الزمر لعدم ورود ما يستدعيها.
ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وفي سورة ق ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾^(١) [ق: ٣١] فعُدل عن نقص ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ إلى زيادته.
أما ما في الشعراء فمناسب من حيث لم يرد أي ذكر للفظ البعد في سورة الشعراء كلها.
وأما العدول إلى الزيادة في ق فلمناسبة تقدم قوله ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ فيما أخبر تعالى عما يقوله قرين الكافر يوم القيامة، وهو:

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَعَيْنُكَ وَلَكِنْ كَانُوا فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

فحسن العدول إلى زيادة ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ في جزاء المتقين، للتناسب اللفظي بين المتقابلين، فقليل:

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٤٢] وفي سورة النحل ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾^(٢) [النحل: ٦٣] فعُدل عن نقص لفظ ﴿تَاللَّهِ﴾ إلى زيادته.

أما النقص في الأنعام والاكتفاء بـ ﴿وَلَقَدْ﴾ فمناسب لتقدم ﴿وَلَقَدْ﴾ في قوله:
﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا...﴾ [الأنعام: ٣٤]

وأما العدول إلى زيادة ﴿تَاللَّهِ﴾ في النحل فلمناسبة تقدم اللفظ نفسه ﴿تَاللَّهِ﴾ في قوله:
﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسْتُمْ بِتَقَرُّونَ﴾ [النحل: ٥٦]

لأن قوله هذا وقوله بعد في الآية المشابهة:

(١) انظر: السابق: ١٢٩.

(٢) انظر: السابق: ٦٦.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ أُمُورًا مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]

متصلان، وهما في تعديد افتراءات المشركين وتهديدهم، مع ما فيه من تسلية رسول الله ﷺ، والحاصل أن اتصالهما جعل التناسب اللفظي بينهما مستحسنًا، فعُدل عن التعبير بـ ﴿وَلَقَدْ﴾ الوارد في الأنعام لعدم مناسبته هنا إلى التعبير بـ ﴿تَاللَّهِ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة في قصة بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨] وفي سورة الأعراف في القصة نفسها ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾^(١) [الأعراف: ١٦١] فعُدل عن زيادة ﴿رَغَدًا﴾ إلى نقصه في الأعراف.

ووجه ذلك هو تناسب الموافقة اللفظية بين هذه القصة وقصة آدم عليه السلام في كل من السورتين لما بين القصتين من تناسب، ففي سورة البقرة زيد لفظ ﴿رَغَدًا﴾ في قصة آدم، قال تعالى:

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ...﴾ الآية [البقرة: ٣٥]

فكانت زيادته في قصة بني إسرائيل الواردة بعد ما يزيد على عشرين آية مناسبة لذلك، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]

أما سورة الأعراف فلم يزد لفظ ﴿رَغَدًا﴾ في قصة آدم فيها، قال تعالى:

﴿وَيَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الآية [الأعراف: ١٩].

وبعد ما يزيد على مئة وأربعين آية جاءت قصة بني إسرائيل، فحسن فيها العدول إلى نقص ﴿رَغَدًا﴾ لتناسب الوارد في قصة آدم هنا كما ناسبها في الزيادة في سورة البقرة، فقل هنا:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة في جزاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٢) خَلِيدِينَ فِيهَا لَا

(١) تقدم في العدول بزوائد ونواقص الاسم.

يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦١﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢] وفي سورة آل عمران في جزاء الذين كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ولم يتوبوا ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ (١) [آل عمران: ٨٧-٨٨] فعُدل عن نقص ﴿جَزَاءُهُمْ أَنْ﴾ إلى زيادته في آل عمران.

أما النقص في البقرة فمناسب لما تقدم الآية من وصف المؤمنين الصابرين بقوله ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ﴾ بلا ذكر الجزاء، قال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

ثم قال بعدها بآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢] فروعيت هنا المناسبة اللفظية بين وصف المؤمنين الصابرين وبين وصف الكافرين الذين وافوا على الكفر، لأن الآيات مبنية على المقابلة المعنوية بين الأمر بالصبر وغيره وبين النهي عن الكفر في قوله ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ * يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٢-١٥٣].

وأما آية آل عمران فتقدمها مقابلة بين من ثبت على الإسلام وبين من اختار ديناً غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ٨٤] إلى قوله ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤-٨٥] فروعيت المناسبة اللفظية فيما ورد من وصف هذين الفريقين فقال تعالى فيمن اختار غير الإسلام:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا...﴾ الآية [آل عمران: ٨٦-٨٩]

وقال فيمن ثبت على الإسلام بعد ما يقرب من خمسين آية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٠] إلى أن قال ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

(١) انظر: العقد الجميل: ١٥.

أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤] إلى قوله :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَحْجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِعَمَلِهِمْ فِيهَا أَجْرٌ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٥-١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]

فقال ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ﴾ مراعاة لقوله ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ ، فالعدول عن التشابه إذن -والله أعلم- لمراعاة هذه المناسبة اللفظية بين الفريقين الذين قبل بينهما في هذه السورة.

ومما يرجح بناء هذه المناسبة اللفظية على التقابل المعنوي أنه ذكر في سورة آل عمران الذين كفروا وماتوا وهم كفار كما ذكروا في سورة البقرة، ولكن لم يُناسب بين لفظ الآية التي ذكروا فيها في آل عمران وبين لفظ آية العدول كما كان في البقرة، وإنما قال تعالى في آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُبْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا...﴾ الآية [آل عمران: ٩١] وهذه الآية كما هو واضح أقرب إلى آية العدول من تلك التي ذكرنا أنه عدل عن التشابه لمناسبتها.

٣- العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر قوله تعالى في آيتين من سورة الأنعام ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣ و ١٢٨] وفي سورة يوسف ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١) [يوسف: ٦] فعدل عن تقديم ﴿حَكِيمٌ﴾ إلى تأخيرها في يوسف.

ووجه ذلك مناسبة كل من المتشابهين لما ورد في سورته من تقدم لفظ ﴿حَكِيمٌ﴾ أو تأخره في الآيات التي اجتمع فيها صفتان من صفاته تبارك وتعالى، ففي سورة الأنعام تقدم الوصف بـ ﴿حَكِيمٌ﴾ في ثلاث آيات؛ هي :

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]

و... عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣]

و... سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩]

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٦٧-٦٨-٦٩، وسند، السيد محمود، أوجز البيان: ٦٢.

وقد جاءت الآيتان المتشابهتان في أثناء تلك المذكورات، فتقدم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيهما ليناسب تقدمه في تلك، قال تعالى:

﴿... نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]

﴿... قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]

أما في سورة يوسف فتأخر الوصف بـ ﴿الْحَكِيمُ﴾ وتقدم ﴿الْعَلِيمُ﴾ في آيتين، هما:

﴿... عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]

﴿... إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]

فكان تناسب الموافقة اللفظية في هذه السورة يستدعي العدول عن التشابه إلى تأخير الوصف بـ ﴿الْحَكِيمُ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَنُيْمٌ غَمَمَتْهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

ولا سيما أن هذه الآية والآيتين قبلها في قصة واحدة.

ج - العدول عن التشابه للتناسب اللفظي بين المطلع والختام :

التناسب اللفظي بين المطلع والختام صورة ثالثة من صور التناسب اللفظي التي يراعيها العدول عن التشابه، وهي داخله في الصورتين قبلها، ولكنها تخالفهما في اختصاصها بالترابط بين صدر الكلام وعجزه، وهو ضرب «من ضروب البيان وفنون التلعب باللسان»^(١).

وقد أعلوا من شأن ذلك الترابط حتى قال ابن المقفع [ت ١٤٣هـ] فيما ذكر الجاحظ [ت ٢٥٥هـ]: «خير أبيات الشعر الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته»^(٢) ولهذا استحسنا أفراد هذه الصورة عما سبقها.

وقد تناول القدماء هذه الصورة من التناسب في دراساتهم القرآنية والبلاغية تحت تسميات مختلفة كـ «الإرصاد» و «التسهيم» و «التوشيح» و «التصدير» و «الترديد» و «رد العجز على الصدر»، وأداروا بحثهم لها على التفصيل فيما تختص به من ترابط بين صدر الكلام

(١) ابن النقيب، مقدمة تفسير ابن النقيب: ٤٩٧.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين: ١: ١١٦.

وعجزه معنوياً كان أو لفظياً^(١)، وقد فرق بعضهم بين ما هو معنوي محض، وبين ما هو لفظي؛ أي ما يحصل بموافقة مطلع الكلام لآخره في اللفظ؛ بأن يعاد اللفظ نفسه أو مشاكله^(٢)، وهذا الذي يهمننا هنا.

ويهمننا أيضاً شيء آخر؛ هو أن الذين تناولوا هذه الصورة من التناسب قيدها بحدود البيت الواحد^(٣) أو الآية الواحدة^(٤)، وقد كشف لنا العدول أنها كما تراعى أحياناً في الآية الواحدة قد تراعى في غيرها كالقضية الواحدة المؤلفة من مجموعة آيات، وكالقصّة الواحدة، ومجموعة القصص المتتالية. ولذلك - إضافة إلى ما سبق من أهمية هذه الصورة - رأينا أن نفردها عما تقدمها، وأن نرتب أمثلة العدول فيها على الأنواع المذكورة آنفاً؛ أي في الآية، ثم في القضية، ثم في القصّة، ثم في القصص، لإبراز مراعاته لكل منها على حدة.

أ - في الآية:

فمن أمثلة العدول لمراعاة التناسب اللفظي بين مطلع الآية وختامها قوله تعالى في سبع آيات في ست سور ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢ و ١٦٠، والمائدة: ١١، والتوبة: ٥١، وإبراهيم: ١١، والمجادلة: ١٠، والتغابن: ١٣] وفي سورة إبراهيم فقط ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٥) [إبراهيم: ١٢] فعُدل عن ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى ﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

ووجه ذلك أن آية إبراهيم الثانية التي وقع فيها العدول انفردت عن مشابهاتها بوقوع الفعل ﴿تَوَكَّلْ﴾ في مطلعها، فاقتضى إحراز التناسب العدول فيها وحدها إلى ﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ليتناسب مطلعها وختامها، قال تعالى:

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَاءٍ أَذْيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]

(١) انظر: أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٢٦٦، ومطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٥٧ وما بعدها، و ٣٥٥ وما بعدها، و ٤٣٨، و ٤٩٦.

(٢) انظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحرير: ٢٣١، والزركشي، البرهان: ١: ٧٨-٧٩، وأبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٢٦٦، ومطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٣٥٧.

(٣) انظر: مطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ٥٧ وما بعدها، و ٣٥٥ وما بعدها.

(٤) انظر: الزركشي، البرهان: ١: ٧٨.

(٥) انظر: العقد الجميل: ٤٤.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَإِذَا رَأٰكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦] وفي سورة الفرقان ﴿وَإِذَا رَأٰكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ ^(١) [الفرقان: ٤١] فعُدل عن إظهار الفاعل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى إضماره.

أما الإظهار في آية الأنبياء فلمناسبة ختامها بقوله ﴿كَفَرُوا﴾، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأٰكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمٰنَ هُمْ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٣٦]

ولما لم يرد في ختام آية الفرقان لفظ يناسب مطلعها عدل إلى الإضمار في المطلع لأنه أخصر. ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ﴾ [المؤمنون: ١٨] وفي سورة لقمان ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ^(٢) [لقمان: ١٠] بالعدول إلى نقص ﴿يَقْدَرُ﴾.

أما الزيادة في آية المؤمنين فمشاكلة لقوله تعالى في ختامها ﴿لَقَدِيرُونَ﴾، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَلَسٰكِنَتُهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهٖ لَقَدِيرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] وأما آية لقمان فلم يقع فيها ما يستدعي تلك الزيادة ويطلب تلك المناسبة، فعُدل فيها إلى النقص.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] وفي سورة هود ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ^(٣) [هود: ٣١] فعُدل عن زيادة ﴿لَكُمْ﴾ في الأنعام إلى نقصه في هود في ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾.

أما الزيادة فنبه الكرماني على مناسبتها بقوله: «لأن ما في الأنعام آخر الكلام فبدأ بالخطاب وختم به» ^(٤) أي أنه لما كان مطلع الخطاب ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ ناسبه الزيادة في ختامه؛ وهو ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ليكون كالمطلع، قال تعالى:

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٩٨، والبرهان: ٢٦٧، وملاك التأويل: ٢: ٦٩٤، والعقد الجميل: ١٢١.

(٢) انظر: العقد الجميل: ٥.

(٣) انظر: البرهان: ٢٢٢، وملاك التأويل: ١: ٣٢٧، وكشف المعاني: ١٦١، والعقد الجميل: ٦٦.

(٤) البرهان: ٢٢٢، وانظر أيضاً: السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٨٢.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]

وأما العدول إلى نقص ﴿لَكُمْ﴾ في آية هود فليتناسب مطلع الخطاب وختامه في أثناء الآية مثل التناسب في آية الأنعام كما نبه الكرمانى بقوله: «وليس ما في هذه السورة آخر الكلام، بل آخره ﴿تَزِدِّيْ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١] فبدأ بالخطاب وختم في السورتين به»^(١) أي أنه لما لم يكن قوله ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ في هود آخر الخطاب حسن العدول إلى نقص ﴿لَكُمْ﴾، ليكون قوله في الجملة التالية ﴿تَزِدِّيْ أَعْيُنُكُمْ﴾ الذي هو ختام الخطاب في هذه الآية مناسباً لمطلعه ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ﴾، قال تعالى:

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِيْ أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَيِّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٣١]

ومن الواضح أن العدول هنا للتناسب اللفظي بين المطلع والختام في أثناء الآية.

٢- في القضية:

ومن أمثلة العدول لمراعاة التناسب اللفظي بين مطلع القضية وختامها قوله تعالى في إحدى آيتين من سورة الأنعام ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] وفي الآية المشابهة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾^(٢) [الأنعام: ١٣٧] فالعدول عن التعبير باسم الرب إلى الاسم الأعظم ﴿اللَّهُ﴾.

قال الكرمانى في الآية الأولى: «لأن قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقع عقيب آيات فيها ذكر الرب مرات، وهي ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤] الآيات فختمها بذكر الرب ليوافق آخرها أولها»^(٣) والقضية في نفي الشريك.

(١) البرهان: ٢٢٢، وانظر أيضاً: السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٨٢.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٢٧، والبرهان: ١٧٦، وملاك التأويل: ١: ٣٤٢، وكشف المعاني: ١٦٥، والعقد الجميل: ٧.

(٣) البرهان: ١٧٦، وانظر أيضاً: السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٩٢٧.

وقال الكرمانى فى الآفة الثانية: «وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧] وقع بعد قوله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] فحتم بما بدأ»^(١).

فالعءول الذى وقع فى ختام القضية لمناسبة مطلعها فى الآفة التى تقدمت آفة العءول ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا...﴾ [الأنعام: ١٣٦] والقضية فى الآيتين على الظاهر من تفسيرهما إخبار عن ضلال المشركين؛ بتقسيمهم القربان من الحرث والأنعام بين الله سبحانه وبين آلهتهم وبقتلهم أولادهم^(٢).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى فى إحدى آيتين من سورة النساء ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وفى الآفة المشابهة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٣) [النساء: ١٢٢] فعءل عن ﴿حَدِيثًا﴾ إلى ﴿قِيلًا﴾.

أما الآفة الأولى فجاءت فى ختام قضية وقع فيها فى مطلعها لفظ ﴿حَدِيثًا﴾، فكان التعبير بهذا اللفظ فى الآفة مناسباً للمطلع، والقضية كما يرشد التفسير فى ذكر المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد ونسبوا ما أصابهم من نعمة إلى الله تعالى وما أصابهم من نقمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أى أنها كما زعموا حصلت بسببه^(٤)، ومطلع القضية قوله تعالى:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وتبعت ذلك آيات فى ذكر أولئك المتخلفين، إلى أن ختمت القضية بقوله تعالى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وأما الآفة المشابهة فكانت ختاماً لقضية عُبر فى مطلعها بلفظ ﴿قَالَ﴾، فعءل فى الآفة إلى ما يناسبه؛ وهو ﴿قِيلًا﴾، ليتناسب المطلع والختام، وذلك لأن القضية فى الإخبار عن

(١) البرهان: ١٧٦، وانظر أيضاً السيوطى، قطف الأزهار: ٢: ٩٢٧.

(٢) انظر: الأنصارى، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٢٩١.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢١٢.

(٤) انظر: الزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز ضمن الموسوعة القرآنية المبصرة: ٩١.

إضلال الشيطان للناس وتحذيرهم منه ، فبعد أن أخبر تعالى عن المشركين بقوله ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧] أي يعبدونه ، وصل سبحانه ذلك بالإخبار عن الشيطان وبحكاية قوله في :

﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ ١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخَدِّنُ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيًّا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨-١١٧].

فحكى سبحانه قول الشيطان بلفظ ﴿قَالَ﴾ في مطلع القضية ، وتبع ذلك آيات في التحذير من اتباعه وفي وعيد متبعيه ووعد المؤمنين ، إلى أن خُتمت بقوله تعالى :

﴿... وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

فعدل عن ﴿حَدِيثًا﴾ الواقع في الآية المشابهة إلى ﴿قِيلًا﴾ هنا لمناسبة ﴿قَالَ﴾ الذي حكى به قول الشيطان في مطلع القضية ، فتناسب المطلع والختام كما كان في التعبير بـ ﴿حَدِيثًا﴾ في الآية المشابهة لمناسبة المطلع والختام.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحج ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وفي سورة الزخرف ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾^(١) [الزخرف: ١٥] فعُدل عن نقص «مبين» إلى زيادته.

أما آية الحج فلم يقع فيها ولا فيما اكتنفها ما يناسب الزيادة اللفظية. وأما آية الزخرف فجاءت في مطلع قضية ختامها قوله تعالى ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ، فروعيت مناسبة هذا الختام بالعدول عن التشابه إلى زيادة ﴿مُبِينٍ﴾ ، قال تعالى

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ ﴿أَمْ أُنْخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْغَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٥ - ١٨]

(١) انظر: العقد الجميل : ١٢٥ .

والقضية كما هو واضح في حكاية افتراءهم على الله أن الملائكة بناته، وفي الرد على ذلك.

٣ - في القصة :

ومن أمثلة العدول لمراعاة التناسب اللفظي بين مطلع القصة وختامها قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] وفي سورة الأعراف ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾^(١) [الأعراف: ١٦٢] المتشابهان في قصة بني إسرائيل، وقد عدل عن نقص ﴿مِنْهُمْ﴾ إلى زيادته في الأعراف.

أما آية البقرة فلم يُحتج فيها إلى زيادة ﴿مِنْهُمْ﴾، لأن مطلع القصة كما نبه الخطيب الإسكافي ومن تابعه خالٍ من زيادتها، وهو قوله تعالى :

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]

وأما آية الأعراف فزيد فيها ﴿مِنْهُمْ﴾ لوقوع ﴿مِنْ﴾ في مطلع القصة كما نبهوا، وهو قوله تعالى :

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]

فناسب العدول إلى زيادته في الختام ليوافق المطلع في اللفظ، قال تعالى في الختام :

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ...﴾^(٢) [الأعراف: ١٦٢]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في آيتين من سورة يوسف ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣ و ١٠٠] وفي سورة الذاريات ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾^(٣) [الذاريات: ٣٠] فعُدل عن تقديم لفظ ﴿الْعَلِيمُ﴾ إلى تأخيره في الذاريات.

أما آيتا يوسف فجاءت أولاهما في أثناء قصته عليه السلام؛ وهي في قوله تعالى مخبراً عن يعقوب أبي يوسف عليهما السلام :

(١) انظر: درة التنزيل: ١٤ - ١٥، والبرهان: ١٢٤، وملاك التأويل: ١ : ٥٨، وكشف المعاني: ٩٧ - ٩٨، والعقد الجميل: ١١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٨ - ١٩، والبرهان: ١٢٤، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣ : ٩٣ - ٩٤، وأبو حيان، البحر المحيط: ١ : ٢٢٦، والسيوطي، قطف الأزهار: ١ : ٢٥٩، والآلوسي، روح المعاني: ١ : ٢٦٨.

(٣) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٦٢.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]

وجاءت الثانية في ختام قصته ؛ وهي في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام :

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْداً وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]

وقد جاء هذا الختام بتقديم ﴿الْعَلِيمُ﴾ مناسباً لمطلع القصة الذي وقع فيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ، وذلك في قوله تعالى :

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتَ إِفَى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقُصُّ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٤٢﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: ٤ - ٦]

وأما العدول إلى تقديم لفظ ﴿الْحَكِيمُ﴾ في الذاريات فلأن الآية جاءت في ختام قصة وقع في مطلعها الوصف بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ متأخراً ، والقصة هي تبشير الملائكة إبراهيم وزوجه - عليهما السلام - بغلام في قوله تبارك وتعالى :

﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أُمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٨ - ٣٠]

فبهذا العدول إلى تأخير ﴿الْحَكِيمُ﴾ تناسب المطالع والختام ، ولولا ذلك لفات التناسب.

٤ - في القصص :

ومن أمثلة العدول لمراعاة التناسب اللفظي بين مطلع مجموعة قصص وختامها قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] وفي سورة المؤمنين ﴿وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ ^(١) [المؤمنون: ٥٢] فعُدل عن التعبير بـ ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ إلى التعبير بـ ﴿فَاتَّقُونِ﴾.

(١) تقدم في العدول بالمبدلات اللفظية المتباينة .

قال أبو جعفر بن الزبير: «سورة الأنبياء لم يرد فيها لفظ التقوى في أمر ولا خبر من أولها إلى آخرها، وورد فيها الأمر بالعبادة من قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وأما سورة المؤمنين فتكرر فيها ذكر التقوى في ثلاثة مواضع؛ أولها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣] وثانيها القصة التالية لهذه ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢] وثالثها فيما بعد الآية المتكلم فيها ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧]. فروع في الأولى ما تقدمها، ونوسب بالثانية ما اكتنفها»^(١) أي أن التعبير بالعبادة في آية الأنبياء مراعاة الآية التي تقدمها والمفصلة عنها بحوالي سبعين آية - :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

لأن هذه الآية هي مطلع لمجموعة قصص، ولكنها لم تتصل بها اتصالاً مباشراً، وإنما وقع بينهما اعتراض بحوالي عشرين آية في إثبات وحدانيته سبحانه وتقرير النبوة والمعاد، وبعد هذا ذكرت القصص من لدن قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ الآية [الأنبياء: ٤٨] وتبعتها قصص إبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وغيرهم إلى أن انتهت بذكر مريم وابنها - عليهما وعليهم السلام - وعقب ذلك جاء قوله :

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]

ختاماً لتلك القصص، فُعبر فيه بـ ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ ليناسب مطلعها الذي عبر فيه بذلك ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأما تنبيه أبي جعفر بن الزبير على أن العدول في آية المؤمنين لمناسبة ما اكتنفها من التعبير بالتقوى في ثلاثة مواضع فصحيح، ولكن ما يهملنا هنا هو أولها؛ لأنه وقع في مطلع مجموعة قصص، في الآية :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

[المؤمنون: ٢٣]

(١) ملاك التأويل: ٢: ٧٠٨، وانظر أيضاً: السيوطي، معترك الأقران: ٣: ٧٤.

فافتتحت القصص بقصة نوح عليه السلام، وتلتها قصص أخرى إلى أن انتهت بذكر مريم وابنها عليهما السلام، وعقب ذلك جاء قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ أُمَّةً
وَلَحْدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢]

فكان هذا ختام تلك القصص التي عُبر في مطلعها بـ ﴿أَفَلَا تَنْفَقُونَ﴾، فناسب أن يُعبر في الختام بـ ﴿فَاتَّقُونِ﴾ ولذلك عدل إليه عما وقع في آية الأنبياء المشابهة، ليتناسب ختام القصص مع مطلعها هنا كما كان كذلك في سورة الأنبياء.

د - العدول عن التشابه لتجنب ثقل التكرار اللفظي :

تجنب ثقل تكرار اللفظ صورة من صور التناسب اللفظي، وهي لا تنافي صورة المشاكلة اللفظية، لأن التكرار قد يكون مستحسنًا وقد يكون مستقبحًا، والعمدة في الحكم عليه بهذه الصفة أو تلك المعنى والمقام، قال الخطابي: «فإنَّ تكرار الكلام على ضربين: أحدهما مذموم؛ وهو ما كان مستغنى عنه؛ غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغوًا، وليس في القرآن شيء من هذا النوع. والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يُحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها ويُخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها»^(١).

والتكرار اللفظي في هذه الصورة مقيد بالمتقارب المستثقل الذي لا يحمل عليه حامل من المعنى كتعظيم أو تهويل كما ذكر أبو جعفر بن الزبير في بعض أمثلة هذه الصورة^(٢).

وقد يكون هذا المتكرر لفظاً واحداً، وقد يتعداه إلى جملة كاملة مع التقارب - وهو أكثر ما وقعنا عليه من أمثلة لهذه الصورة - فيعدل القرآن عن التشابه ليتجنب ما استثقل من تلك المكررات، وليحقق بذلك التناسب في النظم.

(١) الخطابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٥٢.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١ : ٨٩، و٢ : ٧٤٢.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة الأنعام في آيتين متتاليتين ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] و ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨] وفي آية ثالثة من السورة نفسها بعيدة عن تينك الآيتين لم يذكرها أصحاب التوجيه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾^(١) [الأنعام: ١٢٦] فعُدل عن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلى ﴿يَفْقَهُونَ﴾ ثم إلى ﴿يَذْكُرُونَ﴾.

وقد أبدى ابن المنير [ت ٦٨٣ هـ] مناسبة العدول عن ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلى ﴿يَفْقَهُونَ﴾ في الآيتين الأوليين، فقال: «لما أريد فصل [كليهما] بفاصلة تنبيهاً على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين في اللفظ، لما في ذلك من التكرار، فعُدل إلى فاصلة مخالفة تحسیناً للنظم واتساقاً في البلاغة»^(٢) ونقل ذلك عنه الألوسي في تفسيره^(٣).

والظاهر أن كراهة التكرار هنا لكونه جملة طويلة في آيتين قصيرتين متتاليتين، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٤)
 وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْفٍ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ^(٥) [الأنعام: ٩٧-٩٨] فلو كرر ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في الثانية لكان ثقیلاً مع هذا التقارب، فتجنب بالعدول.

أما الآية الثالثة التي وقع فيها ﴿يَذْكُرُونَ﴾ فلم يكتنفها ما هو تكرير لها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سبع آيات من سور ست ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢ و ١٦٠، والمائدة: ١١، والتوبة: ٥١، وإبراهيم: ١١، والمجادلة: ١٠، والتغابن: ١٣] وفي آية واحدة في سورة إبراهيم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢] فعُدل عن ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى ﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول للتناسب اللفظي بين المطلع والختام، وثمة وجه آخر يتعلق بتجنب ثقل التكرار اللفظي، هذا موضعه.

(١) انظر: درة التنزيل: ١٢٥، والبرهان: ١٧٣، وملاك التأويل: ١: ٣٣٤، وكشف المعاني: ١٦٣، والعقد الجميل: ٣٣.

(٢) ابن المنير، الانتصاف: ٢: ٣٩، ووقع في الأصل كليهما، والصواب ما أثبتنا.

(٣) انظر: الألوسي، روح المعاني: ٧: ٢٣٦.

والوجه أن آية إبراهيم تفردت عن مشابهاتها بأن جاءت تكريراً لما وقع فيما تقدمها من قوله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١] فاستثقل التكرير المتقارب بلفظ واحد، فاقضى التناسب تجنب ثقله بالعدول، فقليل ﴿الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، قال تعالى:

﴿... وَمَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْ نَوَكِّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَا أَدَّبْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١ - ١٢]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام من سورتي طه والقصص ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ [طه: ١١، والقصص: ٣٠] وعُدل عن ذلك إلى ﴿جَاءَهَا﴾ في القصة نفسها من سورة النمل ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾^(١) [النمل: ٨].

قال الكرمانى مبتدئاً بآية سورة النمل: «لأنه قال في هذه السورة ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧] فكرر آتيكم، فاستثقل الجمع بينهما وبين ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾، فعدّل إلى قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ بعد أن كانا بمعنى واحد. وأما في السورتين فلم يكن إلا ﴿لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ﴾ [طه: ١٠، والقصص: ٢٩] فناسب أن يأتي بعده في كل منهما ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ [طه: ١١، والقصص: ٣٠]»^(٢).

أي أن العدول في آية النمل لتجنب ثقل التكرار المتقارب لـ «آتيكم» في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ لَكُمْ... الآية [النمل: ٧ - ٨]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في آيتين متتاليتين من سورة النور ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨] و﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩] وأضاف أصحاب التوجيه في أثناء توجيههم هاتين الآيتين آيتين أخريين من سورة النور أيضاً، وهما ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨] و﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٩٢ - ٢٩٣، والبرهان: ٢٨٥، وملاك التأويل: ٢: ٦٦٧ - ٦٦٨، والعقد الجميل: ١١٩ - ١٢٠.

(٢) البرهان: ٢٨٥ - ٢٨٦.

اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ [النور: ٦١] فُعدل عن تعريف ﴿الْآيَاتِ﴾ بآل إلى تعريفها بالإضافة ﴿ءَايَاتِهِ﴾ في آية واحدة من السورة.

قال أبو جعفر بن الزبير في الآيتين الأوليين: «والجواب أنه لما تقارب اللفظ الواحد عدل عن تكراره بلفظ واحد فيما تقارب، على عادة العرب في استثقالها تكرار اللفظ الواحد بعينه في بيت واحد من الشعر أو ما تقارب من الكلام ما لم يحمل على ذلك حامل من المعنى» (٢). والتقارب حاصل من قصر الفاصل بين المتشابهين في الآيتين، قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [النور: ٥٨ - ٥٩]

فُعدل عن التشابه لكيلا يتكرر اللفظ نفسه مع هذا التقارب، ولم يقع تكرار متقارب كهذا يستدعي العدول في الآيتين الأخريين من السورة، فجاءت ﴿الْآيَاتِ﴾ فيهما معرفة بآل كما جاء في الآية المعدول عنها.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة تجنب ثقل التكرير قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] وقوله في أثناء الآية التي تلت هذه ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وزاد الكرمانى قوله تعالى في آية البقرة الأخرى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ (٣) [البقرة: ١٩٦] فُعدل عن زيادة ﴿مِنْكُمْ﴾ إلى نقصه في الآية الثانية.

والوجه كما نبه الكرمانى - وتابعه السيوطى - أن الآية الثانية انفردت عن مشابهتيها بوقوع ﴿مِنْكُمْ﴾ متقدماً عليهما مع التقارب في قوله تعالى :

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [البقرة: ١٨٥]

(١) تقدم في العدول بمبدلات الصيغة التعريفية.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٧٤٢.

(٣) انظر البرهان: ١٣٦، وانظر الآيتين الأوليين في العقد الجميل: ٢٧.

فاكتفي بوقوع ﴿مِنْكُمْ﴾ هنا مرة واحدة^(١)، وُعدِل إلى نقصه في الجملة اللاحقة لتجنب ثقل تكرره مع التقارب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وفي سورة فصلت ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي﴾^(٢) الآية [فصلت: ٣٤] فُعدِل عن زيادة لفظ ﴿السَّيِّئَةِ﴾ إلى نقصه في فصلت.

ووجهه أن آية فصلت تقدمها لفظ ﴿السَّيِّئَةِ﴾ قريباً، قال تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا﴾ الآية [فصلت: ٣٤]

فلو زيد اللفظ هنا فقليل: ادفع بالتي هي أحسن السيئة كما قيل في سورة المؤمنين لكان مستثقلاً، فتجنب هذا بالعدول عن التشابه بنقص اللفظ.

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لمراعاة تجنب ثقل ذلك التكرير قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] وفي سورة الكهف ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] فُعدِل عن تقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾ إلى تأخيرها في الكهف. وقد بينا وجه مناسبة ذلك فيما يراعيه العدول من تناسب المشاكلة اللفظية، وثمة مناسبة أخرى، هذا موضع بيانها.

أما التقديم في الإسراء «فلنثقل التكرار فيما تقارب، ولو قيل: ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً، لجاء لفظ الناس كأنه قد أعيد متصلاً، والعرب تستثقل مثل هذا، فقدم المجرور ليستحكم الفصل فلا يُستثقل»^(٣).

وأما آية الكهف «فلم يتكرر فيها لفظ الناس فيقع استثقال، فقدم قوله ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ لأن تقديمه أهم، إذ هو أبلغ في تنبيههم على الاعتبار»^(٤).

(١) انظر: البرهان: ١٣٦ - ١٣٧، والسيوطي، قطف الأزهار: ١ : ٣٩٤.

(٢) انظر: العقد الجميل: ١٢٦.

(٣) ملاك التأويل: ٢ : ٦٣٠.

(٤) السابق، والصفحة نفسها.

يتبين مما تقدم تفصيله أن العدول عن التشابه مقصود به تحقيق التناسب اللفظي في النظم؛ بالمشاكلة أو الموافقة أو بتناسب المطلع والختام أو بتجنب ثقل تكرار اللفظ، أو بأكثر من صورة من هذه الصور؛ ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الأخص به الأنسب له من آيته أو سورته، لأن تلك الصور - وإن تباينت خصائصها الفنية المقصودة بالعدول - لا تخرج عن نوعين من التناسب اللفظي: قريب وبعيد.

ثانياً: العدول عن التشابه للتناسب الصوتي:

يعدل القرآن عن التشابه مراعاة لصور متنوعة من التناسب الصوتي، يمكن إجمالها في أربع؛ تناسب المشاكلة، وتجنب ثقل المجاورة الصوتية، وتناسب الموازنة، والتناسب في المقدار. وسنتتبع مراعاة العدول لكل منها على حدة كما فعلنا فيما تقدم من مراعاته لصور التناسب اللفظي.

أ - العدول عن التشابه لتناسب المشاكلة الصوتية:

سنتناول هذه الصورة من وجهين؛ الأول صوتي محض؛ يتجلى فيما يراعيه العدول من مشاكلة الصوت للصوت، والثاني صوتي معنوي؛ يتجلى فيما يراعيه من مشاكلة الصوت للمعنى، والغرض من ذلك بيان أن العدول يراعي حسن البيان بالتناسب الصوتي والمعنوي على السواء؛ بأن ينزل الكلمة المعدول إليها منزلها المناسب لها من جهة الصوت والمعنى، من غير أن يحيف أحدهما على الآخر

- العدول عن التشابه لمشاكلة الصوت للصوت:

ومرادنا بمشاكلة الصوت للصوت تماثل الأصوات في الشكل؛ حروفاً كانت أو حركات. وقد استعملت بهذا المعنى في الدراسات القرآنية؛ فقد ذكر الزركشي أن من مشاكلة اللفظ للفظ قوله تعالى - في قراءة من قرأ - ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ﴾ [المائدة: ٦] على أن جر ﴿أَرْجُلُكُمْ﴾ لمجاورته المجرور ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ ومشاكلته له لا لعطفه عليه. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى - في قراءة من قرأ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] فجر الدال لمشاكلة اللام المجرورة^(١). وحقيقة هذه المشاكلة صوتية كما هو واضح. ومع أنها كما يظهر

(١) انظر: الزركشي: البرهان: ٣: ٣٧٧.

من أمثلتها مقصورة على مخالفة القياس ، فإننا سنتجاوز هنا بإطلاقها على كل تشاكل صوتي خالف القياس أم وافقه.

وجدير بالذكر أن العدول بمراعاته للمشكلة الصوتية إنما يراعي جمال الإيقاع ، لأن مدار هذه المشكلة على تكرير الأصوات ، ولهذا شأنه في براعة القول وموسيقاه ، قال بعض المعاصرين : «وعلى قدر الأصوات المكررة تتم موسيقى الشعر وتكمل ، وقد عدّ القدماء الأصوات المكررة براعة في القول لولا ما دخل هذه الكثرة في العصور المتأخرة من تكلف أخرجها عن حسن القول»^(١).

وقال آخر : «إذا تكرر الحرف في الكلام على أبعاد متقاربة أكسب تكرار صوته ذلك الكلام إيقاعاً مبهجاً ، يدركه الوجدان السليم حتى عن طريق المعنى ، فضلاً على إدراكه السمعي بالأذن ، وأقول : على أبعاد متقاربة ؛ تفادياً للإكثار المفسد ، والمتباعد الذي يفقد التكرار قيمته الصوتية الناشئة عن سرعة التردد»^(٢) ثم قال : «وتكرار الحرف على هذه الأبعاد يحسن حسناً كبيراً إذا جاء بطريق التداعي غير متكلف له ، بحيث يتسق [مع] المعنى اتساقاً يشغل النفس عن أن جانباً كبيراً من حسن العبارة راجع إلى التكرار ، وإنما يظهر ذلك عند التأمل»^(٣).

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة ذلك التناسب قوله تعالى في سورة البقرة ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] وفي سورة غافر ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾^(٤) [غافر: ٦٤] فعدل عن ﴿فِرَاشًا﴾ إلى ﴿قَرَارًا﴾.

ومناسبة ذلك أن آية غافر تكرر فيها صوت الراء ضعف مرات تكرر في آية البقرة ، فلما عُبر في آية البقرة بـ ﴿فِرَاشًا﴾ وفيه راء واحدة ، ناسب أن يُعدل في آية غافر إلى ﴿قَرَارًا﴾ الذي فيه راءان ، قال تعالى في آية البقرة :

-
- (١) أنيس ، د. إبراهيم ، موسيقى الشعر : ٢٤٦.
 - (٢) السيد ، د. عز الدين ، التكرير بين المثير والتأثير : ٤٥.
 - (٣) السابق : ٤٦ ، وزدنا مع لاقتضاء السياق لها.
 - (٤) انظر : العقد الجميل : ٥.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

وقال في آية غافر :

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ وَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الْطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة يونس ﴿فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ [يونس: ٩٠] وفي سورة طه ﴿فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُودِهِ﴾^(١) [طه: ٧٨] فعدل عن العطف بالواو إلى الجر بالباء.

أما التعبير بالواو فمشاكل لقوله فيما اتصل بالآية ﴿بَغِيًّا وَعَدُوًّا﴾، قال تعالى :

﴿وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغِيًّا وَعَدُوًّا﴾ [الآية [يونس: ٩٠]

ولم يقع في سياق آية طه ما يستدعي المشاكلة في الواو، بل تقدمها ما يستدعي التشاكل في الباء؛ وهو ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ ﴿فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُودِهِ فَعَسِئَ مِنْ آلِئِمٍّ مَا عَشِيتُمْ﴾ [طه: ٧٧ - ٧٨]

فعدل إلى الجر بالباء ﴿بِجُودِهِ﴾ لمشاكلة ﴿بِعِبَادِي﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْبَاقِيَيْنَ﴾ [البقرة: ٦١] وفي سورة آل عمران ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْبَاقِيَيْنَ﴾ [آل عمران: ٢١] وفي آية أخرى من السورة نفسها ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ﴾^(٢) [آل عمران: ١١٢] فعدل عن التعبير بجمع السلامة ﴿الْبَاقِيَيْنَ﴾ إلى التعبير بجمع التكسير ﴿الْأَنْبِيَاءَ﴾.

قال الكرمانلي: «وجمع ﴿الْبَاقِيَيْنَ﴾ جمع السلامة في البقرة لموافقة ما بعده في جمع السلامة؛ وهو ﴿الَّذِينَ﴾ [البقرة: ٦٢] و﴿الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ٦٢]. وكذلك في آل عمران ﴿الَّذِينَ﴾ [آل عمران: ٢١ و ٢٢ و ٢٣] و﴿نَّصْرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢] و﴿مُعْرِضِينَ﴾

(١) انظر: ابن المنادي، مشابه القرآن العظيم: ١٩٧.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٥، وملاك التأويل: ١: ٧٠، والعقد الجميل: ١٣.

[آل عمران: ٢٣] ^(١) وهذه إشارة منه إلى المشكلة الصوتية في الياء والنون بين ﴿الَّذِينَ﴾ وبين ﴿الَّذِينَ﴾ و ﴿وَالصَّاعِينَ﴾ في آية البقرة وما تلاها، قال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عِزِّيَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّاعِينَ وَالصَّاعِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وََعَمِلَ صَالِحًا....﴾ الآية [البقرة: ٦١ - ٦٢]

وكذلك الإشارة إلى المشكلة الصوتية بين ﴿الَّذِينَ﴾ وبين ﴿الَّذِينَ﴾ و ﴿تَصْرِيفَ﴾ و ﴿مُعْرِضُونَ﴾ في آية آل عمران الأولى وما تلاها، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عِزِّيَّ حَتَّى يَقْتُلُوا الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقِطَ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢١ - ٢٣]

فالمشكلة بين ﴿الَّذِينَ﴾ وبين هذه الكلمات المنتهية بياء ونون واضحة، وليس في إدخال

﴿مُعْرِضُونَ﴾ في هذه المشكلة ما يعكر على ذلك؛ لأن بين ياء المد وواو المد شبهاً صوتياً يسوغ تناوبهما باستحسان بخلاف ألف المدة فقد «تناوبت واو المد وياء المد مكان إحداهما الأخرى، ولم يحس الشعراء في هذا بأي غرابة، وألف المد هي الوحيدة بين الحركات التي إذا جاءت قبل الروي التزمت في كل الأبيات، لأنها أوضح كل الحركات في السمع» ^(٢).

وقد اكتفى الكرمانى بالإشارة إلى مناسبة التعبير بـ ﴿الَّذِينَ﴾ في آيتي البقرة وآل عمران الأولى، فلم يبين مناسبة العدول إلى ﴿الْأَنْبِيَاءِ﴾ في آية آل عمران الثانية، والمناسبة هي المشكلة الصوتية في مد الألف المتلو بهمزة بين ﴿الْأَنْبِيَاءِ﴾ و ﴿سَوَاءٌ﴾ و ﴿قَائِمَةٌ﴾ و ﴿ءَاثَاءٌ﴾ في قوله تعالى:

(١) البرهان: ١٢٦.

(٢) أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٢٦٥، ومراده بـ "كل الحركات" الحركات القصيرة المعروفة: الفتحة والكسرة والضمة، والحركات الطويلة الناشئة عنها: الألف والياء والواو، كما ذكر في الصفحة: ٢٦٥.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾
[آل عمران: ١١٢ - ١١٣]

وذلك لأن مجيء الهمز بعد ألف مد في كلمة واحدة يوجب المد بمقدار خمس حركات، وعند بعضهم بمقدار أربع^(١)، والمهم أن وقوع هذه الكلمات الممدودة مداً متصلاً طويلاً استدعى العدول عن التشابه إلى التعبير بـ ﴿الْأَنْبِيَاءَ﴾ لما فيه من مد متصل طويل مشاكل لمد تلك الكلمات.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في أولى آيتين من سورة البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا﴾ [البقرة: ١٥٩] وفي الثانية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾^(٢) [البقرة: ١٧٤] فعُدل عن الإضمار في ﴿أَنزَلْنَا﴾ إلى الإظهار في ﴿أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

أما الإضمار فمشاكل لما ورد في الآية من أصوات النون المتبعة بألف المد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٩]

ولم يقع في سياق الآية المشابهة ما يستدعي المشاكلة في الإضمار، وإنما وقع فيها قريباً من الاسم المظهر ﴿اللَّهُ﴾ لفظ ﴿الْكِتَابِ﴾ وفيه ألف مد متبعة بحركة الباء، فناسب العدول إلى الإظهار، لأن في لفظ «اللاه» ألفاً متبعة بحركة الهاء، ولا سيما أن صوت الكسرة التي هي حركة الباء، وصوت الضمة التي هي حركة الهاء، متشابهان تشابهاً جعل القدماء يستحسنون تناوب أحدهما مع الآخر، فبهذا التقارب بين الصوتين مع ألف المد راعى العدول المشاكلة في قوله تعالى:

(١) انظر: الزحيلي، د. وهبة، قواعد التجويد؛ ضمن الموسوعة الميسرة: ٦١٩ - ٦٢٠. ومقدار الحركة يعادل "ما يقبض الإنسان إصبعه أو يسطها بحالة وسطى": السابق: ٦١٨.
(٢) انظر: العقد الجميل: ٢٥.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْرُونَ بِهِ مَثَلًا لِّلَّذِينَ الْآيَةُ [البقرة: ١٧٤]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] وفي سور يوسف وص والتكوير ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤، وص: ٨٧، والتكوير: ٢٧] وقد تقدم هذا المثال في تناسب الموافقة اللفظية، وذكرنا هناك أن العدول في ظاهره عن صيغة التأنيث ﴿ذِكْرَى﴾ إلى صيغة التذكير ﴿ذِكْرٌ﴾.

ووجه التناسب الصوتي هنا هو المشكلة في الراء المفتوحة المفخمة بين ﴿ذِكْرَى﴾ و﴿أَجْرًا﴾ في آية الأنعام، قال تعالى:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]

وثمة وقف جائز على ﴿أَجْرًا﴾ مشار إليه بـ «صلى»^(١) يحيل التناوين ألفاً كألف ذكرى فتكون المشكلة أوضح.

وللمشكلة الصوتية أيضاً عدل إلى صيغة التذكير ﴿ذِكْرٌ﴾ في آيتي يوسف وص، لأنه جاء في سياقهما ﴿أَجْرٌ﴾ مكسوراً منوناً لا مفتوحاً كما كان في سياق آية الأنعام، قال تعالى في آية يوسف:

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]

وقال في سورة ص:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦ - ٨٧]

وبين الضمة والكسرة شبه صوتي استحسن القدماء لأجله تناوب إحداهما مع الأخرى فيما قبل الروي في الشعر كما ذكرنا قريباً، ولم يستحسنوا التناوب مع الفتحة^(٢). وهذا محسوس بوضوح فيما لو افترضنا وقوع ﴿أَجْرًا﴾ المنصوب في سورتي يوسف وص، مما يدل دلالة بينة على أن العدول مراعى به تلك المشكلة الصوتية في الراء المضمومة والراء المكسورة من ﴿أَجْرٍ﴾ و﴿ذِكْرٌ﴾ في الآيتين.

(١) صلى علامة من علامات جواز الوقف في القرآن، تدل على أن الوصل أولى مع جواز الوقف. انظر: نسخة القرآن الكريم المطبوعة بمؤسسة علوم القرآن الكريم، منار للنشر والتوزيع، انظر منها: علامات الوقف ومصطلحات الضبط: ٦١٢.

(٢) انظر: أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٢٦٥ - ٢٦٦.

أما آية التكوير فلم يقع في سياقها لفظ ﴿أَجْرٌ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُونِهِ﴾ [النحل: ٦٦] وفي سورة المؤمنين ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُونِهَا﴾^(١) [المؤمنون: ٢١] فعدل عن التعبير بضمير التذكير ﴿بَطُونِهِ﴾ إلى ضمير التأنيث ﴿بَطُونِهَا﴾.

أما آية النحل فالتذكير فيها مناسب للألفاظ الواردة بصيغة التذكير، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِرٍ لِّبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]

وأما العدول إلى التأنيث في آية المؤمنين فلمشكلة صوتية نبه عليها أبو جعفر بن الزبير بقوله «وورد في سورة المؤمنين على التأنيث والجمع لما بني على ذلك من قوله ﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٢١] وعليها وعلى الفلك تُحْمَلُونَ» [المؤمنون: ٢١ - ٢٢] فنوسب بضمير الأنعام ما أتبع به من الضمائر في قوله ﴿فِيهَا﴾ و﴿مِنْهَا﴾ و﴿عَلَيْهَا﴾، فورد بصيغة التأنيث والجمع^(٢).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَالَّتِي أَحْصَلَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] وفي سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَلَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(٣) [التحريم: ١٢] فعدل عن التعبير بضمير التأنيث ﴿فِيهَا﴾ إلى ضمير التذكير ﴿فِيهِ﴾.

نبه أبو جعفر بن الزبير على أن التعبير بالتأنيث في آية الأنبياء للمشكلة، لأنه جاء بين أصوات الهاء الممدودة في قوله تعالى:

﴿وَالَّتِي أَحْصَلَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا...﴾ الآية [الأنبياء: ٩١].

(١) تقدم في العدول بمبدلات الصيغة التذكيرية.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٦١١.

(٣) تقدم في العدول بمبدلات الصيغة التذكيرية.

ورأى أبو جعفر أنه ليس في آية التحريم داعية تشاكل يعبر لأجلها بالتأنيث كما في آية الأنبياء المشابهة فُعبر فيها بضمير المذكر^(١). وهو صحيح، بيد أن في آية التحريم تشاكلاً صوتياً في الهاء المفتوحة فالمكسورة بين ﴿فَرَجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ و﴿يَكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾، قال تعالى:

﴿وَمَرَّهَ أَبْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾
وَكَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

فروعت هذه المشاكلة الصوتية بالعدول إلى ضمير التذكير، ولم تكن لتقع لو جاء الضمير مؤنثاً.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المدثر ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكُرْ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٥] وفي سورة عبس ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكَّرٌ﴾ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكُرْ﴾^(٢) [عبس: ١١-١٢] فعدل عن ضمير المذكر ﴿إِنَّهُ﴾ إلى ضمير المؤنث ﴿إِنَّهَا﴾.

ومناسبة ذلك هي المشاكلة الصوتية في سياق كل من المتشابهين، لأن آية المدثر وردت في سياق كثر فيه صوت الضمة والواو - وهما من جنس واحد - فجاء التعبير بضمير المذكر المضموم الهاء ﴿إِنَّهُ﴾ مناسباً لذلك، قال تعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿فَزَتْ مِنْ قَسَوْرَةٍ﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوَفَّى شُحْفًا مُنْشَرَةً﴾ ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكُرْ﴾ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ [المدثر: ٤٩-٥٦].

ولم يكن سياق آية عبس بهذه الصفة، وإنما كثر فيه صوت الفتحة والألف - وهما من جنس واحد - فاستدعى التشاكل هنا العدول عن التشابه إلى التعبير بضمير المؤنث المفتوح الهاء ﴿إِنَّهَا﴾، قال تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهَ يَرْكَبُ﴾ ﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعْتَبَ﴾ ﴿فَإِنَّ لَمْ يَصْدَقْ﴾ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ ﴿فَإِنَّ عَنْهُ﴾

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٧٠٥.

(٢) انظر: البرهان: ٣٥٢، والعقد الجميل: ١٤٧.

لَلَّهِ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴿عيسى: ١-١٦﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْأَسَاءِ وَالْضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرِعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] وفي سورة الأعراف ﴿أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالْضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرِعُونَ﴾^(١) [الأعراف: ٩٤] فعدل عن الفك ﴿يَضَّرِعُونَ﴾ إلى الإدغام ﴿يَضَّرِعُونَ﴾.

أما الفك فنبه الكرمانى وأبو جعفر بن الزبير على أنه مراعى به مناسبة ﴿تَضَرَّعُوا﴾ في قوله تعالى:

﴿... لَعَلَّهُمْ يَضَّرِعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا تَضَرَّعُوا... ﴿٤٣﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٣]

لأن الماضي ﴿تَضَرَّعُوا﴾ لا إدغام فيه^(٢).

وأما مناسبة العدول إلى الإدغام في آية الأعراف فنبه عليها صاحب المناجاة فيما نقله عنه السيوطي بأنه «لما وقع في الأعراف ذكر النبي مدغماً، والمدغم أخف، ناسبه بإدغام ﴿يَضَّرِعُونَ﴾»^(٣) أي أن المناسبة هي التشاكل الصوتي في الإدغام بين ﴿تَبَّى﴾ و ﴿يَضَّرِعُونَ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالْضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرِعُونَ﴾ [الأعراف:

[٩٤]

وواضح أن هذه المشكلة لا تقتصر على الإدغام في الكلمتين، بل هي حاصلة في هذه الكلمات التي أشرنا إليها بالتشديد، فقويت مناسبة العدول إلى الإدغام هنا، بخلاف سياق آية الأعراف المشابهة فإن الأصوات المدغمة فيه أقل، فكان مجيء ﴿يَضَّرِعُونَ﴾ فيه مفكوكاً أنسب من هذا الوجه، قال تعالى:

-
- (١) انظر: البرهان: ١٧١، وملاك التأويل: ١: ٣٢٦، والعقد الجميل: ٦٦.
(٢) انظر: البرهان: ١٧١، وملاك التأويل: ١: ٣٢٧. وانظر أيضاً: السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٧٨، وفيه نقل عن الكرمانى توجيهه.
(٣) السيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٧٨.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٨] وفي سورتي الإسراء والكهف ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ﴾^(١) [الإسراء: ٩٧، والكهف: ١٧] فعدل عن التمام بإثبات الياء في ﴿الْمُهْتَدَىٰ﴾ إلى نقصها من ﴿الْمُهْتَدَىٰ﴾.

وليس في آية الأعراف ما يستدعي المشكلة في نقص الياء. أما آيتا الإسراء والكهف ففي كل منهما لفظان قريبان يطلبان تلك المشكلة؛ لأن في كل لفظ منهما دالاً متحركة، فصارت الدالان في كل آية طالبتين للعدول إلى نقص الياء من ﴿الْمُهْتَدَىٰ﴾ من حيث كان الوقف على الكلمة في هذه الحال - وهو جائز مشار إليه ب - يوجب قلقلة الدال؛ أي شدة الضغط على مخرجها حتى يخرج مع صوتها صُوت^(٢)، فهو كما تبين الدراسات الصوتية الحديثة تطويل لصوت الدال مع إتباعها بصوت لين قصير جداً شبيه بالكسرة^(٣)، فصارت دال ﴿الْمُهْتَدَىٰ﴾ أشبه بصوتين متبوعين بصوت لين، فتناسب هذا مع الدالين المتبوعتين بصوت لين في كل من آيتي الإسراء والكهف، قال تعالى في آية الإسراء:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُم أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَيَحْشُرُهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ الآية [الإسراء: ٩٧].

وقال في آية الكهف:

﴿ذَٰلِكَ مِّنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُم وَلِيًّا مُّرْسِدًا﴾

[الكهف: ١٧]

والمشكلة حاصلة سواء نُظر إلى هذا التوازن أم لم ينظر إليه كما هو واضح، ولم يقع مثل ذلك في آية الأعراف، قال تعالى:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

(١) انظر: البرهان: ٢٠١، والعقد الجميل: ٨٦.

(٢) انظر: سيبويه، الكتاب: ٤: ١٧٤.

(٣) أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ١٥٦.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وفي سورة الحج ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾^(١) [الحج: ٥٢] فعدل عن نقص لفظ ﴿نَبِيٍّ﴾ إلى زيادته في آية الحج.

ووجه المشكلة الصوتية أن آية الأنبياء لم تكثر فيها الأصوات المدغمة كثرتها في آية الحج، فناسب أن يعدل إلى زيادة لفظ ﴿نَبِيٍّ﴾ المدغم الياء في آية الحج، قال تعالى في آية الأنبياء:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

وقال في آية الحج:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢] وفي سورة الشورى ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٢) [الشورى: ٣١] فعدل عن زيادة ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إلى نقصه.

أما الزيادة فاستدعتها المشكلة الصوتية في ألف المد المتبوع بالهمز بين ﴿السَّمَاءِ﴾ وبين ﴿يَشَاءُ﴾ و﴿وَلِقَائِهِ﴾ و﴿أُولَئِكَ﴾، من قوله تعالى:

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُوا مِنْ رَحْمَتِي.. الآية [العنكبوت: ٢١ - ٢٢]

(١) انظر: العقد الجميل: ١٠١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣٥١، و البرهان: ٢٩٥، وملاك التأويل: ٢: ٧٦٦، وكشف المعاني: ٢٨٩، والعقد الجميل: ١٣١.

فالمدة في كل من هذه الكلمات بمقدار خمس حركات أو أربع كما تقدم في مثال سابق.
على أن أوضح شيء في هذه المشاكلة هو ما بين ﴿يَشَاءُ﴾ و﴿السَّمَاءُ﴾، ولا سيما أن ثمة
وقفاً جائزاً عليهما يجعلهما فاصلة داخلية متوازنة.

وأما آية الشورى فليس فيما اكتنفها ما يستدعي تلك المشاكلة، فناسبها العدول إلى
نقص ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، قال تعالى :

﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۖ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۖ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۖ﴾ [الشورى: ٣٠ - ٣٢]
ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦] وفي سورة المجادلة ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(١) [المجادلة: ١٧] فعدل
عن زيادة الواو في آل عمران ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى نقصها في المجادلة.

ووجه التناسب في ذلك هو المشاكلة الصوتية في كلا المتشابهين؛ لأن آية آل عمران
اكتنفها آيات خُتمت كل منها بجملته معطوفة بالواو، قال تعالى :

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِمَّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِنِ آتَاهُ الْبَلَاءُ نَكَلٍ وَهُمْ لَا يَسْجُدُونَ ۖ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۖ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۖ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ۖ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٧]

على أنه ثمة موضعان يجوز عليهما الوقف في الآية، مع أولوية الوصل؛ مشار إليهما بـ
« صلى »؛ هما ﴿شَيْئًا﴾ و﴿النَّارِ﴾، ومن البين أنه لا يصح الوجه الذي ذكرناه إلا بالوقف
على ﴿شَيْئًا﴾ وبوصل ﴿النَّارِ﴾ بـ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

(١) انظر: العقد الجميل: ٣٨، وقد اقتصر الكرمانلي في البرهان: ٣٤٤ على آية المجادلة.

أما العدول إلى نقص الواو في آية المجادلة فنبه الكرمانى على أنه لمشكلة الجمل التي قبل الآية، لأنها ليس فيها واو، وهي في قوله تعالى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المجادلة: ١٥ - ١٧].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في قصة صالح - عليه السلام - من سورة الشعراء ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤] وفي قصة شعيب - عليه السلام - من السورة نفسها ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٨٩﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ^(١) [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦] فعدل عن نقص الواو من الأولى إلى زيادتها في الثانية.

نبه أبو جعفر بن الزبير على أن ذلك للمناسبة الصوتية في كل من المتشابهين، فقال: «والجواب عنه - والله أعلم - أن ذلك لرعي المناسبة؛ بيان ذلك ما ثبت قبل الآية الثانية من قوله تعالى حكاية لما عدّ شعيب في أمر قومه وذكر من مرتكباتهم في قوله: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٤] فهذه خمس معطوفات من مأمور به ومنهي عنه، طابقتها العطف في جوابهم من قوله تعالى حكاية عنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٨٩﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦] فهذه مناسبة واضحة. ولما تقدم في قصة صالح عليه السلام قوله ﴿اتَّبِعُوا فِي مَا هَلُمْنَا ءَامِينَ ﴿٩١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٩٢﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٩٣﴾ وَتَنَجُّوتٍ مِنْ الْجِبَالِ يُّوْتًا فَرِهِينَ ﴿٩٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٩٥﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٦﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٥٢] فلم يقع في هذه القصة من المعطوفات أمراً ونهياً سوى قوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٩٥﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥١]

(١) تقدم في العدول بالمبدلات الحرفية العاطفة.

فناسب ذلك ورود جوابهم في دعوى المماثلة في البشرية بغير حرف النسق، فقالوا ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] بخلاف الآية الثانية^(١).

وقد يُعترض على ما أبداه أبو جعفر بوقوع الواو مراراً في قصة صالح كما وقعت في قصة شعيب عليهما السلام؛ فالقصتان تستدعيان المشاكلة، وليست آية العدول أولى بذلك من مشابهتها. والجواب أن تكرر الواو في قصة صالح عليه السلام جاء على أبعاد متفاوتة؛ فهو تارة متقارب جداً نحو ﴿فِي جَنَّتٍ وَعَيْنٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ﴾ [الشعراء: ١٤٧ - ١٤٨] وتارة متباعد نحو ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ۚ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢] وبهذا التفاوت لم تقو داعية المشاكلة هنا كما قويت في قصة شعيب - عليه السلام - فكان الأنسب نقص الواو من قصة صالح في قوله تعالى ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۖ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤]. أما قوة داعية المشاكلة في قصة شعيب - عليه السلام - فلا أن تكرر الواو فيها جاء على أبعاد متقاربة، قال تعالى حكاية عن شعيب - عليه السلام - :

﴿أَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٤]

فكان العدول عن التشابه بزيادة الواو مشاكلاً لذلك، وهو أنسب شيء، ولا سيما أن العطف بالواو قد وقع في جملة أخرى عقب الجملة التي وقع فيها العدول، وكانت هاتان الجملتان متقاربتين في الطول إضافة إلى جملة سبقتهما، وذلك في قوله تعالى :

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۖ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نُظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦]

والظاهر أن هذا التقارب هو الذي جعل أبا جعفر ينبه على وقوع المشاكلة في هذه القصة دون القصة السابقة، ويؤكد ذلك أنه لم ينبه إلا على تكرر العطف في الجمل التي ورد فيها الأمر والنهي، وهي التي يظهر فيها التقارب في أوضح صورة. ومهما يكن من أمر فإن تدقيق النظر في هذه المشاكلة يبين أنه لولا العدول هنا لاختل التناسب وتنافر الإيقاع.

(١) ملاك التأويل: ٢: ٧٤٩ - ٧٥٠.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النساء ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣] وفي سورة التوبة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١) [التوبة: ٨٩] فعُدل عن زيادة الواو في ﴿وَذَلِكَ﴾ إلى نقصها من آية التوبة.

أما الزيادة فنبه الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانى - على أنها لمناسبة ختم الآية التالية للموجهة بجملة دخلتها الواو؛ وهي ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. وزاد الكرمانى أنها لمناسبة دخول الواو على الجملة الواقعة في مطلع الآية الموجهة؛ وهي ﴿وَمَنْ يُطِيعِ﴾. وزاد السيوطي فيما نقله عن الكرمانى أنها لمناسبة دخول الواو على الجملة الواقعة في مطلع الآية التالية للآية الموجهة؛ وهي ﴿وَمَنْ يَعِصِ﴾^(٢)، قال تعالى:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤]

فالمشكلة ظاهرة بين مطلع الآيتين وتعقيبهما.

وأما العدول إلى نقص الواو من آية التوبة فنبه الكرمانى على أنه لمناسبة مطلع الآية؛ لأنه بغير واو^(٣)، قال تعالى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٩]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وفي سورة فاطر ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٤) [فاطر: ٣٩] فعُدل عن نقص الجار إلى زيادته.

-
- (١) انظر: درة التنزيل: ١٠٠ - ١٠١، والبرهان: ١٥٣، وملاك التأويل: ١: ١٩٣.
(٢) انظر: درة التنزيل: ١٠٤، والبرهان: ١٥٤، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٦٩٣.
(٣) انظر: البرهان: ١٥٤، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٦٩٣.
(٤) انظر: درة التنزيل: ٣٨٨، والبرهان: ١٧٩ - ١٨٠، وملاك التأويل: ١: ٣٥٨، وكشف المعاني: ١٧٢ - ١٧٣ و ٣٠٣، والعقد الجميل: ٧٤.

وليس في آية الأنعام داعية مشاكلة يزداد لأجلها الجار «في». أما في آية فاطر فاستدعى زيادتها المشاكلة في الفاء؛ لأنها تكررت تكرراً متقارباً منسّقاً مثني مثني، فافتضى ذلك العدول إلى زيادتها لتكون مع فاء ﴿خَلَقَ﴾ مشاكلة للوارد في الآية، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩]

ولولا هذا العدول لاختل التناسب الصوتي هنا. أما آية الأنعام فليس في سياقها ما يطلب مثل هذه المشاكلة كما أشرنا، ويتضح هذا بالمقارنة بين الآيتين، قال تعالى في آية الأنعام:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لمراعاة مشاكلة الصوت للصوت قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] وفي سورة الأعراف ﴿وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدًا نَغْفِرْ لَكُمْ﴾^(١) [الأعراف: ١٦١] فعُدل عن تقديم الأمر بالسجود في البقرة إلى تأخيره في الأعراف.

أما تقديمه فلمشاكلة ﴿سُجْدًا﴾ لـ ﴿رَعْدًا﴾ في الدال المنصوبة، قال تعالى:

﴿لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ شَتْمَ رَعْدًا وَادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الآية [البقرة: ٥٨]

وكان يمكن تأخير الأمر بالسجود كما وقع في آية الأعراف مع حصول المشاكلة، إلا أن ما جاء عليه النظم أنسب؛ لأن الإدغام الحاصل من نون التنوين في واو العطف من ﴿رَعْدًا و﴾ حال الوصل، مشاكل للحاصل من نون التنوين في واو العطف من ﴿سُجْدًا و﴾، مع حصول المشاكلة في صوت الدال، ولو أخر الأمر بالسجود لفاتت المشاكلة في الإدغام

(١) تقدم في العدول بمقدم ومؤخر المتعاطفين من الجمل.

- وإن بقيت في صوت الدال - لأنه حينئذ يكون إدغاماً لنون التنوين في النون من ﴿سُجِّدًا نَعْفِرُ﴾؛ وهو إدغام كامل ثقيل، بخلاف السابق فإنه ناقص خفيف^(١).

وأما تأخير الأمر بالسجود في آية الأعراف فروعيت بالعدول إليه مشاكلة ﴿شَتْمٌ﴾ لـ ﴿حِطَّةٌ﴾، قال تعالى:

﴿وَكُلُّوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجِّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ...﴾ الآية [الأعراف: ١٦١]

فالمشاكلة في التاء المضمومة من الكلمتين، مع ما بين الميم الساكنة في ﴿شَتْمٌ﴾ ونون التنوين الساكنة في ﴿حِطَّةٌ﴾ من التقارب، ولولا العدول بتأخير الأمر بالسجود لفات هذا التماثل، فإنه لا يبقى إذ ذاك إلا التقارب بين التاء من ﴿شَتْمٌ﴾ والدال من ﴿سُجِّدًا﴾.

- العدول عن التشابه لمشاكلة الصوت للمعنى :

نريد بمشاكلة الصوت للمعنى مناسبتة له في القوة والرقّة، والطول والقصر، ونحو ذلك. ولم يتعرض أصحاب توجيه المتشابه لهذا اللون من التناسب إلا تلميحاً في مواضع نادرة^(٢). ولم يُعن به القدماء العناية اللائقة، وقد أشار إليه بعضهم إشارة عامة؛ نحو قول ضياء الدين بن الأثير [ت ٦٣٧ هـ]: «الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه؛ فالجزل منها يُستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك»^(٣) فهو يريد صوت اللفظ، لأنه بيّن ما يعنيه بالجزالة والرقّة بقوله: «أعني بالجزل أن يكون متيناً؛ على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع. وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون رقيقاً سَفْسَفاً، وإنما هو اللطيف، الرقيق الحاشية، الناعم الملمس»^(٤).

(١) انظر: الزحيلي، د. وهبة، قواعد التجويد؛ ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٦٢٣.

(٢) انظر على سبيل المثال: ملاك التأويل: ٢: ٦٥٥، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٧٨.

(٣) ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ١٨٥.

(٤) السابق: ١: ١٨٥ - ١٨٦.

ولهذا التناسب قيمة كبيرة في موسيقى الكلام، جعلت بعض المعاصرين يرى مراعاته المراعاة المطلوبة في الشعر كملاً مطلقاً في موسيقاه^(١). وإذا كانت له هذه القيمة فطبيعي أن يكون مراعى في القرآن الكريم، وقد أشار بعض المعاصرين إلى هذه المراعاة فيه، فقال: «وقد شارك الصوت الفكرة في القرآن مشاركة فعالة معبرة عن الانسجام بين الشكل والمضمون»^(٢) وطبيعي بعد هذا أن نجد ذلك التناسب مراعى في العدول عن التشابه، بل أن نجده أوضح ما يكون في هذا العدول.

وقبل أن نشرع في التمثيل نستحسن أن نقدم بين يديه بعض الضوابط التي سنعتمدها في تحليل الأمثلة، وضعها باحث معاصر في دراسته لموسيقى الشعر، وهي صالحة هنا لأن مدارها على أصول صوتية عامة لا تختص بالشعر وحده، منها تقسيمه الحروف إلى قسمين أحدهما يناسب المعنى من حيث العنف والآخر من حيث الرقة، قال: «وكما قُسم المعنى إلى عنيف ورقيق، يمكن أن تقسم الحروف إلى قسمين: أحدهما ينسجم مع المعنى العنيف، والآخر يناسب المعنى الرقيق الهادئ، ومرجع هذا التقسيم في الحروف صفاتها ووقعها في الأذان»^(٣) ثم حدد الحروف المناسبة للمعاني العنيفة، فقال: «وربما كانت الأحرف الآتية أنسب الحروف للمعاني العنيفة: الخاء، القاف، الجيم، الضاد، الطاء، الظاء، الصاد. فإذا كثرت في ألفاظ الشعر ولم تكن كثرتها مما يُستقبح أو مما تنطبق عليه ضوابط تنافر الحروف مجتمعة، أحسنا في موسيقى هذا الشعر بقوة وعنف لا نحس بهما مع غيرها من الحروف»^(٤).

ومن هذه الضوابط أن «أسهل الكلمات نطقاً تلك التي تتركب من الأحرف الآتية: اللام، النون، الميم، الدال، التاء، الباء، أحرف المد»^(٥).

(١) انظر: أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٤٣.

(٢) ياسوف، د. أحمد، جماليات المفردة القرآنية: ٢٠٥.

(٣) أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٤٣.

(٤) السابق، والصفحة نفسها.

(٥) السابق: ٣٣.

ومنها أن ثمة حروفاً تحتاج إلى جهد عضلي زائد، قال: «فيمكن بوجه عام أن نعد الحروف الآتية من التي تحتاج إلى ذلك الجهد العضلي - وإن كانت تتفاوت في هذا - : حروف الحلق: الهمزة، الهاء، العين، الحاء، الخاء، الغين. حروف أقصى اللسان: القاف، الكاف. حروف وسط اللسان: الجيم، الشين. حروف الإطباق: الصاد، الضاد، الطاء، الظاء»^(١).

ومنها أيضاً أن الكلمات الكثيرة الحروف تتطلب مجهوداً عضلياً أكثر، ولا سيما إذا كان فيها حرف أو اثنان مما يحتاج ذلك المجهود، قال: «فجميع الكلمات الكثيرة الحروف يمكن أن تعد بوجه عام من الكلمات الصعبة، ذلك لأنها تتطلب جهداً عضلياً أكثر»^(٢). ثم قال: «ويزيد من صعوبة الكلمة الكثيرة الحروف أن تتضمن حرفاً أو حرفين من تلك التي تحتاج إلى مجهود عضلي أكثر، مثل: القاف، أو [حرف] الإطباق، وبعض حروف الحلق، والزاء»^(٣).

ومنها أن الأحرف المهموسة تتطلب النطق بها جهداً أكبر مما يتطلبه النطق بالمجهورة، ولا سيما إذا وقعت في كلمة كثيرة الحروف، قال: «الأحرف المهموسة تحتاج للنطق بها إلى قدر أكبر من هواء الرئتين مما يتطلبه المجهورة، فالأحرف المهموسة مجهدة للتنفس»^(٤) ثم قال: «إذا تصادف أن اشتملت الكلمة الكثيرة الحروف على عدد من الأحرف المهموسة عُدت من الكلمات المجهدة الثقيلة إلى حد ما»^(٥).

ومنها أن «الأحرف الانفجارية التي كان القدماء يسمونها بالشديدة كالتاء والذال والكاف والباء والجيم الفاهرية أسهل من نظائرها الرخوة كالسين والزاء والشين والفاء والجيم الكثيرة التعطيش»^(٦).

تلك هي أهم الضوابط التي نحتاج إليها في التمثيل لما يراعيه العدول من مشكلة الصوت للمعنى.

(١) السابق: ٣٥.

(٢) السابق: ٣١.

(٣) السابق، والصفحة نفسها، وما بين قوسين كذا هو في الأصل، ولعل صوابه حروف.

(٤) السابق: ٣٢.

(٥) السابق، والصفحة نفسها.

(٦) السابق: ٣١ - ٣٢.

ونستحسن الإشارة إلى أننا لن نكتفي في تحليل الأمثلة بالنظر في أصوات الكلمتين المعدول عنها وإليها - وإن كان هذا قد يفي بالغرض - بل سننظر في أصوات الكلمات الواقعة في سياقهما لتأكيد سلامة الاستنتاج، وزيادة الاطمئنان إلى صحة الوجه المناسب.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذا اللون من التناسب قوله تعالى في سورة النمل ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] وفي سورة الزمر ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ - فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(١) [الزمر: ٦٨] فعدل عن ﴿فَفَزِعَ﴾ إلى ﴿فَصَعِقَ﴾.

ووجه التناسب أن «فزع» أسهل في النطق من «صعق»، لأن الفاء والزاي لا تحتاجان إلى الجهد العضلي الذي تحتاج إليه الصاد والقاف، فضلاً عن أن هذين الأخيرين أنسب للتعبير بالمعنى الأقوى، فلما كان «فزع» أسهل وأرق عُبر به في الآية الأولى ليشاكل معناها الذي هو أرق من معنى مشابهتها، قال تعالى :

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ دَخِرِينَ﴾^(٨٧) وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَأَنْفَنَ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ^(٨٨) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامُونَ^(٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٧-٩٠]

أما الآية المشابهة فكان المعنى فيها وفيما اكتنفها أقوى وأفخم من آية النمل السابقة، فاقتضت المشاكلة هنا العدول إلى التعبير بـ «صعق» لقوته الصوتية، قال تعالى :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٩٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِيَامٍ يَظُنُّونَ﴾^(٩١) وَأَشْرَفَتِ الْأَرْضُ بِرُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ

(١) انظر: البرهان: ٢٨٩، وكشف المعاني: ٢٨٣.

بِالنَّيِّتِ وَالشَّهَادَةِ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿[الزمر: ٦٧ - ٧٠]

فمع أن الآيتين المتشابهتين في الإخبار عن البعث واضح أن آية الزمر أقوى في المعنى لسبقها بالإخبار عن عظيم قدرته عز وجل.

ويؤكد ما تقدم كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي - وهي فيما تُقَل لونه - فيما اكتنف آية الزمر بالقياس إلى ما اكتنف آية النمل.

وجدير بالذكر أن ضياء الدين بن الأثير مثل بآيات الزمر - مع آيات أخرى أعقبت ما ذكرناه - لوضع الألفاظ الجزلة موضعها الذي تحسن فيه، من غير تعليق على ذلك، ومن غير تعرض لآية النمل^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وفي سورة فصلت ﴿فَقَضَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(٢) [فصلت: ١٢] فعُدل عن ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾ إلى ﴿فَقَضَّيْنَهُنَّ﴾.

والوجه أن «سوى» أسهل في النطق من «قضى» لأن السين والواو لا يحتاجان إلى ما يحتاج إليه القاف والضاد من جهد عضلي، فضلاً عن أن هذين الأخيرين أنسب للتعبير بالمعنى الأقوى، فلما كان «سوى» أسهل كان التعبير به في آية البقرة أنسب، لأن المعنى فيها أرق مما في آية فصلت، قال تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨ - ٢٩].

أما آية فصلت فالمعنى فيما اكتنفها أقوى، فاقتضت مشاكلته العدول عن التشابه إلى التعبير باللفظ الأقوى صوتياً، فقليل ﴿فَقَضَّيْنَهُنَّ﴾، قال تعالى:

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَ لَهَا أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٦﴾﴾

(١) انظر: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ١٨٦.

(٢) انظر: ابن الجوزي، فنون الألفان: ٤٢٠.

وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ قُوفٍهَا وَنَزَلَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٨﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَذَرْتَكُمْ صَعِقَةً مِّثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَنُوحُودٍ ﴿فصلت: ٩ - ١٣﴾

فمع أن المتشابهين واردة في سياق الإنكار والتوبيخ على الكفر فإن ما في فصلت أقوى في ذلك، ثم إن فيما سبق آية فصلت من أمر السماء والأرض وانقيادهما فخامة وقوة ليس لها نظير في البقرة.

ويتأكد ما سبق بكثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في آية فصلت وما اكتنفها، وبقلتها في البقرة، ويزداد هذا وكادة بكثرة السينات الواقعة في آية البقرة، بل في جملة واحدة منها؛ وهي ﴿أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، فهذا مناسب لرقعة معناها. ولما قوي المعنى في آية فصلت تباعدت السينات، قال تعالى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] فكان الأنسب لقوة المعنى هنا العدول إلى ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في أولى آيتين من سورة النساء ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧] وفي الثانية ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ ^(١) [النساء: ١٦٨] فعُدل عن ﴿سَبِيلًا﴾ إلى ﴿طَرِيقًا﴾.

ووجه ذلك أن ﴿سَبِيلًا﴾ ليس في حروفها ما يناسب المعنى القوي، بخلاف ﴿طَرِيقًا﴾ ففيها من ذلك الطاء والقاف، ولهذا كان التعبير بـ ﴿سَبِيلًا﴾ في الآية الأولى أنسب من حيث كان معناها أرق من معنى الثانية، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٧ - ١٣٨]

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢٢٢، والعقد الجميل: ٥٤.

ولما كان معنى الآية الثانية أقوى ناسب العدول فيها إلى ما فيه قوة صوتية ليشاكل قوة معناها، فقليل فيها ﴿طَرِيقًا﴾، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ﴾ [١٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا إِلَيْهِمْ طَرِيقًا ۖ إِلَّا طَرِيقٌ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿[النساء: ١٦٧ - ١٦٩]

فلا يخفى أن المعنى في هذه الآية الثانية أقوى مما في الأولى، ولا سيما أنه ذكر فيها الجزاء مقروناً بالخلود المؤبد في جهنم، وهو أغلظ مما ذكر في الأولى.

ويؤكد ما تقدم عدم وقوع صوت مما يناسب المعنى القوي في الآية الأولى، بخلاف الثانية فقد وقع فيها مراراً وقوعاً يشعر بمشكلة الصوت القوي للمعنى القوي.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحجر ﴿فَاتَّبَعُهُمْ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨] وفي سورة الصافات ﴿فَاتَّبَعُهُمْ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾^(١) [الصافات: ١٠] فالعدول عن ﴿مُبِينٌ﴾ إلى ﴿تَافِقٌ﴾.

وليس في كلمة ﴿مُبِينٌ﴾ حرف يحتاج إلى جهد عضلي زائد، بل هي - كما في الضوابط التي مهدنا بها لهذا التمثيل - من أسهل الكلمات في النطق، أما ﴿تَافِقٌ﴾ ففيها القاف التي تناسب المعنى القوي، وفيها الشاء التي تحتاج إلى بعض المجهود العضلي لرخاوتها؛ ويدل على ذلك أنها «شقت على ألسنتنا فتطورت في لهجات الكلام إلى تاء»^(٢) وذلك «لأن لهجات الكلام في تطورها تتخذ عادة أيسر الطرق وما يحتملها أقل مجهود عضلي»^(٣) والمهم أن ﴿مُبِينٌ﴾ أنسب للمعنى الرقيق، و﴿تَافِقٌ﴾ أنسب للمعنى القوي، وقد جاءت ﴿مُبِينٌ﴾ في موضعها المناسب، لأن المعنى في آية الحجر رقيق بالقياس إلى ما في الصافات، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ۖ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨] وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿[١٧] إِلَّا مَنْ

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٢٠٣.

(٢) أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٣٣.

(٣) السابق: ٣٢.

وكان المعنى في آية الصفات أقوى، فعُدل فيها إلى التعبير بـ ﴿ثَاقِبٌ﴾ لتشاكل قوته الصوتية القوة المعنوية، قال تعالى :

﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِرِيْنَةِ الْكُوكَبِ ۖ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۖ لَا يَسْمَعُونَ إِلَىٰ آلَمٍ لَّا
الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ۚ دُحُورًا ۚ وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِْبٌ ۚ إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ
ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ٦ - ١٠]

ففي هذه الآية قذف من كل جانب وعذاب واصب، وخطف، وهو أبلغ من استراق السمع الذي في مشابهتها.

وتبين صحة ما قدمنا بالنظر إلى كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في الصفات، وقتلتها في الحجر، بل يكفي النظر في الآيتين لتبين تلك الصحة، إذ ليس في آية الحجر إلا القاف في ﴿أَسْتَفْقَ﴾، على حين جاء في آية الصفات خمسة أصوات؛ أربع منها خاء وطاء في ﴿خَطَفَ الْخَطْفَةَ﴾، والخامس قاف ﴿ثَاقِبٌ﴾، فتشاكلت قوة الصوت مع قوة المعنى في هذه الآية، ولو لم يُعَدل إلى ﴿ثَاقِبٌ﴾ هنا فقل ﴿مُئِينٌ﴾ لخفت القوة الصوتية، ولما كان ذلك مناسباً.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة طه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣] وفي سورة الزخرف ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزخرف: ١٠] وقد تقدم هذا المثال في تناسب الموافقة اللفظية، وثمة مناسبة صوتية للمعنى في العدول عن ﴿وَسَلَكَ﴾ إلى ﴿جَعَلَ﴾.

ووجه هذه المناسبة الصوتية للمعنوية أن ﴿وَسَلَكَ﴾ أسهل في النطق من ﴿جَعَلَ﴾، لأنه ليس في الأولى مما يحتاج إلى جهد عضلي زائد إلا الكاف، أما الثانية ففيها الجيم والعين، وأولهما يناسب المعنى القوي، وثانيهما حرف حلقي هو أقوى من أحرف ﴿وَسَلَكَ﴾، وبالجملة ﴿وَسَلَكَ﴾ أسهل من ﴿جَعَلَ﴾، والمناسب لذلك أن يعبر بالأسهل عن المعنى الرقيق، وبالأقوى عن المعنى الأقوى، وكذلك هو في المتشابهين، فالمعنى في آية طه أرق مما في الزخرف، لأنها كما ذكر أبو جعفر بن الزبير مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله، إذ

جاءت في سياق أمره تعالى لموسى وهارون عليهما السلام أن يدعوا فرعون بالقول اللين - وهو ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾^(١) [طه: ٤٤] - قال تعالى حكاية عنهما وعن فرعون:

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ٤٤ ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ٤٥ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ٤٦ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ ٤٧ ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَسْئُرُ﴾ ٤٨ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٤٨ - ٥٣]

فهذا خطاب لين ومعنى رقيق يناسبه التعبير بـ ﴿وَسَلَكَ﴾.

والمعنى في آية الزخرف أقوى والخطاب فيها أشد، وهي كما نبه أبو جعفر بن الزبير مبنية على توبيخ كفار العرب وتقريعهم^(٢)، فاستدعى هذا العدول إلى ﴿جَعَلَ﴾ ليشاكل بقوته الصوتية قوة المعنى في الآية وما اكتنفها، قال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ١ ﴿وَإِنَّكُمْ فِي أُرْكُنَاتِ أَلْحِقَابٍ لَّدَيْنَا لَعَلَّ حَكِيمٌ﴾ ٢ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ ٣ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ ٤ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ٥ ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٦ ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ٧ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ٨ ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ٣-١١].

ومع أن تلك المشكلة محسوسة، وهي أوضح من أن يُعلق عليها، فلا يضير التنبيه على أن أكثر الأصوات المناسبة للمعنى القوي في الزخرف وقعت في آية العدول وفي الآيتين اللتين اكتنفتاها، ولم تكن بهذه الصفة من التقارب المشعر بقوة المعنى في آية طه، مما يؤكد الوجه الذي بيناه.

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٨٤.

(٢) انظر: السابق: ٢: ٦٨٥.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨] وفي سورة الأعراف ﴿فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) [الأعراف: ٣٥] فعدل عن ﴿ءَامَنَ﴾ إلى ﴿أَتَقَىٰ﴾.

والتعبير بـ ﴿أَتَقَىٰ﴾ أنسب للمعنى القوي من التعبير بـ ﴿ءَامَنَ﴾ بسبب القاف التي هي أحد الحروف المناسبة للمعاني القوية، وليس في ﴿ءَامَنَ﴾ حرف من تلك الحروف مما يجعلها أنسب للمعنى الأرق، وهذا ما روعي في الآيتين المتشابهتين؛ فُعبر بـ ﴿ءَامَنَ﴾ في آية الأنعام لمشكلة رقة المعنى فيها، قال تعالى:

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨ - ٤٩]

ولما كان المعنى في آية الأعراف أقوى روعيت مشكلة الصوت له بالعدول إلى ﴿أَتَقَىٰ﴾، قال تعالى:

﴿يَبْنِي ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦]

فالمذكور في الأعراف تكذيب واستكبار وجزاؤه الخلود في النار، أما في الأنعام فتكذيب فقط، ومس عذاب دون خلود فيه، فالمعنى في الأعراف إذن أبلغ وأقوى، فناسب أن يعدل فيها إلى ﴿أَتَقَىٰ﴾ ليتشاكل الصوت والمعنى في القوة كما كانا متشاكلين في الرقة في آية الأنعام.

ويؤكد ما قلناه كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في آية الأعراف وقلتها في الأنعام، مع ما في الأعراف من أصوات أخرى تحتاج إلى جهد عضلي زائد ليست في الأنعام.

(١) انظر: العقد الجميل: ١٠.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] وفي إحدى آيتين من سورة النساء ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] وفي الثانية ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ﴾^(١) [النساء: ٩١] فالعدول بالجملة عن ﴿تَقِفُوهُمْ﴾ إلى ﴿وَجَدْتُمُوهُمْ﴾

وبين «ثقف» و «وجد» تقارب في القوة الصوتية؛ لتضمن كل منهما حرفاً مناسباً للمعاني القوية؛ القاف في الأول والجيم في الثاني. بيد أنهما يختلفان في أن الأول فيه الثاء والفاء؛ وكلاهما حرف مهموس، والثاني فيه الواو والdal؛ وكلاهما مجهور^(٢)، والأحرف المهموسة مجهدة للتنفس بخلاف المجهورة كما تقدم في الضوابط التي مهدنا بها للتمثيل، وبهذا كان ﴿تَقِفُوهُمْ﴾ أقوى في النطق من ﴿وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وزاد قوته كثرة حروفه مع تعدد ما فيه من الأحرف المهموسة؛ التي هي الثاء والقاف والفاء والتاء والهاء^(٣)، مما يجعل اللفظ مجهداً للنطق كما تقدم في الضوابط الممهدة؛ بخلاف ﴿وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فليس فيه من المهموس إلا التاء والهاء. والحاصل من ذلك أن التعبير بـ ﴿تَقِفُوهُمْ﴾ أنسب للمعنى القوي، وبـ ﴿وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أنسب للمعنى الرقيق، وهذا ما روعي في تلك المتشابهات؛ لأن المعنى في آيتي البقرة والنساء الثانية أقوى مما في آية النساء الأولى، فجاء التعبير في تينك بـ ﴿تَقِفُوهُمْ﴾ الأقوى صوتياً والأكثر إجهاداً ليناسب تلك القوة المعنوية، قال تعالى في آية البقرة:

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْبَلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ فَعَلْتُمْ فَبَلَّغْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

وقال في آية النساء الثانية:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُمُوا أَيْدِيَهُمْ فَحَدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١]

(١) انظر: السابق: ٢٧.

(٢) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٢١.

(٣) انظر: السابق: ٢١.

ولم يكن المعنى في آية النساء الأولى بهذه الصفة، وإنما كان أرق، فناسب أن يُعدل فيها إلى ﴿وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ لتشاكل سهولته الصوتية رقة المعنى، قال تعالى:

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَحُذِّهُم وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩]

فآيتا البقرة والنساء الأولى أقوى في المعنى من مشابهتهما الأخيرة هذه؛ لأن آية البقرة في قتال المشركين للمسلمين، وآية النساء الثانية في قتال المنافقين للمسلمين، وفي كليهما جرى ذكر للفتنة؛ أي فتنة المؤمن عن دينه في البقرة، وفتنة وقوع المنافقين في الكفر وارتدادهم إليه وتأبيدهم للكفار في محاربة المسلمين في آية النساء^(١).

أما آية النساء الأولى المشابهة فليس فيها محاربة، ولم يجر فيها ذكر للفتنة، وإنما اقتصر أمر المنافقين هنا على تمنيعهم كفر المسلمين، وفيها تلطف بهؤلاء المنافقين حتى يهاجروا. وبهذا يتضح أن الآيتين الأولىين أقوى في المعنى من الثالثة، وأن التعبير فيهما بـ ﴿تَفْتَنُوهُمْ﴾ ذي القوة الصوتية مشاكل للقوة المعنوية، وأن العدول عن ذلك إلى التعبير بـ ﴿وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في آية النساء الأولى لمشكلة الرقة المعنوية فيها؛ لما في هذا اللفظ من سهولة صوتية بالقياس إلى ﴿تَفْتَنُوهُمْ﴾.

ويؤيد ما نهنا عليه وجهان؛ الأول كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في آيتي البقرة والنساء الثانية وقتلها في آية النساء الأولى. والثاني كثرة الأصوات التي تحتاج إلى جهد عضلي زائد في آيتي البقرة والنساء الثانية وقتلها في آية النساء الأولى، ولا شك في أن الأصوات التي تحتاج إلى ذلك الجهد أنسب للمعاني القوية، وسنشير هنا إلى ما في كل آية من آيات المتشابهات الثلاث من تلك الأصوات لنبين المفارقة ونؤكد المشاكلة، وذلك بإثبات الكلمات التي فيها أحرف تحتاج إلى ذلك الجهد، وبإتباعها برقم يشير إلى عددها في الكلمة، أما تحديد تلك الحروف فتقدم في الضوابط التي افترضنا بها هذا اللون من التناسب.

(١) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٦٥ و ١٨١، والزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز؛ ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٣٠ و ٩٣.

في آية البقرة: اقتلوهم [٢]، حيث [١]، ثقفتموهم [٢]، أخرجوهم [٤]، حيث [١]، أخرجوكم [٤]، أشد [٢]، القتل [١]، تقاتلوهم [٢]، عند [١]، المسجد [١]، الحرام [١]، حتى [١]، يقاتلوكم [٢]، منه [١]، فإن [١]، قاتلوكم [٢]، فاقتلوهم [٢]، كذلك [٢]، جزاء [٣ مع عد الزاي]، الكافرين [١] = ٣٧.

في آية النساء الثانية: ستجدون [١]، آخرين [٢]، أن [١]، يأمنوكم [٢]، يأمنوا [١]، قومهم [٢]، كل [١]، إلى [١]، أركسوا [٢]، فيها [١]، فإن [١]، يعتزلوكم [٣]، يلحقوا [١]، إليكم [٢]، يكفوا [١]، أيديهم [٢]، فخذوهم [٢]، اقتلوهم [٢]، حيث [١]، ثقفتموهم [٢]، أولئك [٣]، جعلنا [٢]، لكم [١]، عليهم [٢]، سلطاناً [١] = ٤٠.

في آية النساء الأولى: تكفرون [١]، كما [١]، كفروا [١]، فتكونون [١]، سواء [١]، تتخذوا [١]، منهم [١]، أولياء [٢]، حتى [١]، يهاجروا [٢]، الله [١]، فإن [١]، فخذوهم [٢]، اقتلوهم [٢]، حيث [١]، وجدتموهم [٢]، تتخذوا [١]، منهم [١]، نصيراً [١] = ٢٤.

ففي آية البقرة سبعة وثلاثون حرفاً من الأحرف المجهدة عضلياً، وفي آية النساء الثانية أربعون، وفي الأولى أربعة وعشرون. ففي الأوليين كثرة واضحة تناسب قوة المعنى فيهما، مع ما يؤكد ذلك من التقارب بينهما في عدد تلك الحروف، وفي آية النساء قلة واضحة تناسب رقة المعنى فيها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ٩٤] وفي سورة سبأ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾^(١) [سبأ: ٣٤] فعدل عن ﴿نَّبِيٍّ﴾ إلى ﴿نَّذِيرٍ﴾.

والنطق بـ ﴿نَّبِيٍّ﴾ يحتاج إلى جهد عضلي أكثر مما يحتاج إليه النطق بـ ﴿نَّذِيرٍ﴾، بسبب إدغام الياء، لأن الإدغام «حبس الصوت في الحيز بعنف»^(٢) فهو يحتاج إلى جهد عضلي زائد^(٣)، وينضاف إلى ذلك ما لإدغام الياء من صعوبة في الوصل، فهو كما نُقل عن بعض

(١) انظر: العقد الجميل: ٨٢.

(٢) الضباع، علي محمد، الإضاءة في بيان أصول القراءة: ١٤٠.

(٣) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٢١١ - ٢١٢.

شُراح المقدمة الجزرية أصعب من إدغام سائر الحروف إلا الواو^(١)، ففي النطق بـ ﴿نَيَّ﴾ إذن جهد ليس له نظير في ﴿نَذِيرٌ﴾؛ بل المد هنا يجعل هذا اللفظ أسهل، وإن كان فيه الذال المهموسة لأنها ضعيفة بالنسبة إلى الإدغام، وبهذه السهولة يكون أنسب للمعنى الرقيق، ويكون ﴿نَيَّ﴾ أنسب للمعنى القوي، وهذا ما روعي في الآيتين المتشابهتين؛ إذ المعنى في آية الأعراف أقوى، فجاء التعبير فيها بـ ﴿نَيَّ﴾ الأقوى صوتياً مشاكلاً لتلك القوة المعنوية، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾
[الأعراف: ٩٤]

والمعنى في آية سبأ أرق، فاقترضت مشاكلته الصوتية العدول إلى التعبير بالأسهل صوتياً، فقيل ﴿نَذِيرٌ﴾، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤ - ٣٥]

ففي آية الأعراف أخذ وشدة وقوة صوتية مشاكلة لذلك. وليست آية سبأ بهذه الصفة؛ ولذلك قلت فيها الأصوات المناسبة للمعنى القوي بما فيها المدغمات.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف حكاية عن صالح - عليه السلام -

﴿اتَّجِدِلُونَنِي فِتْ أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١] وفي سورة يوسف حكاية عن يوسف - عليه السلام - ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِيَ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠] وفي سورة النجم في خطاب مشركي العرب ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾^(٢) [النجم: ٢٣] فعُدل عن التعبير بـ ﴿نَزَّلَ﴾ إلى التعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾.

(١) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد في علم التجويد: ٩٣.

(٢) تقدم في العدول بمبدلات الصيغة البنائية.

والهمزة والزاي من الحروف التي تحتاج إلى جهد عضلي زائد، والإدغام كذلك كما تقدم في المثال السابق، فاجتمع في ﴿نَزَلَ﴾ جهد الزاي وجهد الإدغام الذي يفوق جهد الهمزة، مما جعل النطق بهذا اللفظ أقوى صوتياً من النطق بـ ﴿أُنْزِلَ﴾، وبهذا يكون ﴿نَزَلَ﴾ أنسب للمعنى الأقوى، و﴿أُنْزِلَ﴾ أنسب للمعنى الرقيق، وقد روعي هذا في المتشابهات الثلاث؛ لأن المعنى في آية الأعراف واضح القوة شديد الوقع لما فيه من التوعد الذي توعد به صالح - عليه السلام - قومه، قال تعالى حكاية عنه:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَیْتُ أَمْرًا لَّيْسَ بِكُم مِّنْ أُمَّةٍ قَدْ جَاءَكُمُ الْفَصْلُ وَتَوَلَّوْاْ وَكُنْتُمْ أَصْغَرًا مِّنْ يَّوْمٍ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ الْبَصِيرُ﴾ [الأعراف: ٧١]

فجاء التعبير هنا بـ ﴿نَزَلَ﴾ الأقوى صوتياً مشاكلاً لهذه القوة المعنوية الواضحة. وليس في آيتي يوسف والنجم قوة معنوية كالتى في مشابهتهما السابقة، وإنما فيهما رقة تقتضي مشاكلتها الصوتية العدول إلى التعبير بالأرق صوتياً ﴿أُنْزِلَ﴾، أما آية يوسف فخطب بها يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن داعياً إياهما إلى عبادة الله ونبذ ما عداه من عبادة الأصنام بخطاب لين رقيق، قال تعالى حكاية عنه:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ إِنَّهُ أَمَرَ آلَ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِنُمْ وَلَكِنَّا كَثِيرٌ نَّاسٍ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]

وأما آية النجم فخطب بها مشركو العرب بخطاب رقيق لين - وإن كان أقوى مما في آية يوسف - ودُّعوا بها إلى نبذ عبادة الأصنام واتباع الهدى الذي جاءهم من الله، قال تعالى:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]

ويؤيد ما تقدم كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في آية الأعراف كثرة محسوسة يدرك بها تالي الآية تشاكل القوة المعنوية والصوتية، على حين قلت تلك الأصوات في آيتي يوسف والنجم قلة واضحة ليتشاكل المعنى والصوت فيهما، ولو عُبر هنا بـ ﴿نَزَلَ﴾ لما تحقق التشاكل، أي أنه لولا العدول لاختل التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المدثر ﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿٥٥﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٥] وفي سورة عبس ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكَّرُ﴾ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿١٢﴾ [عبس: ١١ - ١٢] فعُدل عن التعبير بضمير التذكير في ﴿إِنَّكُمْ﴾ إلى التعبير بضمير التأنيث في ﴿إِنَّهَا﴾. وقد تقدم هذا المثال قريباً في مشكلة الصوت للصوت، وهذا موضع شرح ما راعاه العدول فيه من مشكلة الصوت للمعنى.

وينبغي وجه المشكلة هنا على الفرق في الجهد العضلي الذي يحتاج إليه النطق بالضم والفتح، فالضمة أثقل من الفتحة^(١)، لأن النطق بها يحتاج إلى استدارة الشفتين، على حين تبقيان منفرجتين في النطق بالفتحة^(٢)، مما يحوج إلى جهد عضلي زائد للنطق بالضمة، ويجعلها من ثم أنسب للمعنى القوي، وتبقى الفتحة أنسب للمعنى الرقيق، وقد روعي هذا في العدول عن التشابه هنا؛ وذلك أن المعنى فيما اكتنف آية المدثر أقوى، لأن مداره على توبيخ المشركين على إعراضهم عن القرآن وزجرهم عما اقترحوه تعنتاً من أن يُعطى كل منهم كتاباً خاصاً به من الله يثبت أن محمداً - ﷺ - رسوله^(٣)، فجاء التعبير هنا بـ ﴿إِنَّكُمْ﴾ الأقوى صوتياً لضمة الهاء ليشاكل تلك القوة المعنوية، قال تعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ أَنْ يُوقَّ ضُحْفاً مُّتَنَفِّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ﴿٥٦﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥٦]

أما آية عبس وما اكتنفها فدار المعنى فيها على عتاب رسول الله - ﷺ - لانشغاله بدعوة بعض كبراء قريش إلى الإسلام وإعراضه عن الأعمى الذي جاءه يطلب العلم^(٤)، وليس عتاب رسول الله - ﷺ - كتوبيخ الكفار في القوة، ولا شك في أن العتاب أرق وألين، فروعى هذا بالعدول إلى ﴿إِنَّكُمْ﴾ الأرق صوتياً لفتحة الهاء ليشاكل تلك الرقة المعنوية، قال تعالى:

- (١) انظر: سيبويه، الكتاب: ٤: ١٦٧.
- (٢) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٣٥.
- (٣) انظر: الزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز؛ ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٥٧٨.
- (٤) انظر: السابق: ٢: ٨٣٤ - ٨٣٥.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ① أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَزْكِي ③ أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ④ أَمَّا مَنْ ⑤ اسْتَعْيَى ⑥ فَأَن تَ لَمْ تَصْدَى ⑦ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكِي ⑧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ⑨ وَهُوَ يَخْشَى ⑩ فَأَن تَ عَنْهُ ⑪ نَلْهَى ⑫ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ⑬ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ⑭ فِي ضُحًى مَّكْرَمَةٍ ⑮ مَرْهُوقَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ⑯ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ⑰ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿[عبس: ١-١٦]

ومع أن تلك المشكلة مدركة واضحة، فإنها تزداد وكادة بملاحظة كثرة أصوات الضم والواو في المدثر - وهما أقوى من الفتحة والألف - وقلتها في عبس مع كثرة الفتحة والألف هنا كما تقدم بيانه في التمثيل بهذا المثال في مراعاة العدول لمشكلة الصوت للصوت.

ومن أمثلة العدول بالمبدلات الحرفية لرعاية هذه المشكلة قوله تعالى في سورة الرعد ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢] وفي سورة لقمان ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] وفي سورتي فاطر والزمر كما في الرعد ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ^(١) [فاطر: ١٣، والزمر: ٥] فعُدل عن التعبير باللام إلى التعبير بـ ﴿إِلَى﴾ ثم إلى التعبير باللام، وبالجمله هو عدول عن اللام إلى ﴿إِلَى﴾.

والفارق الصوتي الأبرز هنا هو مد الصوت في آية لقمان وقصره في مشابهاها، لأن تلاقي حرفي المد والهمزة بوقوع المد في آخر الكلمة والهمزة في أول الكلمة التالية يجيز مد الصوت بمقدار خمس حركات، أو أربع أو اثنتين؛ على خلاف في ذلك، وبعضهم يجيز القصر، والأكثر على المد ^(٢). فلما التقى المد والهمزة قبل ﴿إِلَى﴾ وبعده في آية لقمان ﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ﴾ كان ثمة مدان جائزان؛ مد الياء قبل ﴿إِلَى﴾، ومد الألف من ﴿إِلَى﴾. أما اللام في الآيات المشابهة ﴿لِأَجَلٍ﴾ فليس فيها مد.

ومدار المعنى في آيات الرعد وفاطر والزمر على الإخبار عن ابتداء الخلق كما نبه الخطيب الإسكافي ^(٣) وكما شرحنا ذلك في تمثيلنا بهذا المثال في مراعاة العدول للتناسب المعنوي، قال تعالى في آية الرعد:

(١) تقدم في العدول بالمبدلات الحرفية الجارة.
(٢) انظر: دعاس، عزت، الواضح في شرح المقدمة الجزرية: ٧٢ - ٧٣، وانظر: تفصيل ذلك في النشر لابن الجزري: ١: ٣١٩ وما بعدها.
(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٧٥.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]

وقال في فاطر :

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [فاطر: ١١] إلى قوله :
﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾
[فاطر: ١٣]

وقال في آية الزمر :

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: ٥]

وليس في ذلك الإخبار ما يناسب المد، بل القصر أنسب له؛ لأنه إخبار عما حدث في الماضي، ولهذا عُبر هنا باللام، ف قيل ﴿لِأَجَلٍ﴾.

أما آية لقمان فمدار معناها على التنبيه على البعث، ووقعت في سياق الإخبار عنه كما نبه الخطيب الإسكافي ^(١) وكما شرحنا في تمثيلنا بهذا المثال في مراعاة العدول للتناسب المعنوي، قال تعالى :

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَافٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٨ - ٢٩]

ثم قال بعد آيات :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ ﴿الآية [لقمان: ٣٣]

(١) انظر: السابق: ٣٧٤ - ٣٧٥.

فلما اكتنف الآية ما ينبه على البعث أفهم الإخبار فيها بجريان الشمس والقمر امتداده إلى يوم البعث، لا مجرد الإخبار عما حدث في الماضي، فناسب هذا الامتداد العدول إلى التعبير بـ ﴿إِلَى﴾ ليتيح مد الصوت في موضعين من ﴿يَجْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ﴾، ويكون هذا المد الصوتي مشاكلاً للامتداد المعنوي.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ﴾ الآية [الأنفال: ١٣] وفي سورة الحشر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ﴾ (١) الآية [الحشر: ٤] فعُدل عن الفك إلى الإدغام ﴿يُشَاقِقِ﴾ في الحشر.

والنطق بالمفكوك ﴿يُشَاقِقِ﴾ يحتاج إلى جهد عضلي أكثر مما يحتاج إليه النطق بالمدغم، لأن «اجتماع المثليين عندهم مكروه، لأنهم يستثقلون أن يُميلوا ألسنتهم عن موضع، ثم يعيدوها إليه، لما في ذلك من الكلفة على اللسان، وقد شبه الخليل ذلك بمشي المقيد، لأنه يرفع رجله ويضعها في موضعها، أو قريب منه، لأن القيد يمنعه عن الانبعاث، وامتداد الخطوة» (٢) أما حال الإدغام «فيرتفع اللسان بهما دفعة واحدة شديدة، فيكون ذلك أخف عليهم من ارتفاع اللسان بهما دفعتين» (٣) والحاصل أن ﴿يُشَاقِقِ﴾ أقوى صوتياً من ﴿يُشَاقِقِ﴾، مما يجعل الأول أنسب للمعنى القوي، والثاني أنسب للمعنى الرقيق. وقد روعي هذا بالعدول عن التشابه؛ إذ كان المعنى في آية الأنفال أقوى، ووقع التعبير فيها بالأقوى ﴿يُشَاقِقِ﴾، قال تعالى:

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٢ - ١٤]

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٧٤، و البرهان: ١٥٦ - ١٥٧، وملاك التأويل: ١: ٢١٤، والعقد الجميل: ٥٢.

(٢) ابن عيش، شرح الملوكي في التصريف: ٤٥١ - ٤٥٢.

(٣) السابق: ٤٥٢.

وكان المعنى في آية الحشر ألين وأرق، فاقتضت مشاكلته الصوتية العدول إلى الأرق صوتياً، فقليل فيها ﴿يُشَاقُّ﴾، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرَجُونَ بِيُودِهِمْ وَيَأْتِيهِمُ الْيُودِيُّ الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْتَبُوا بِأَوَّلِي الْأَبْصَرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿[الحشر: ٢ - ٤]﴾

فمع أن الآيتين وقعتا في سياق قوة معنوية، فإن ما في الأنفال أقوى؛ لذكر الحرب والقتال، أما آية الحشر فذكر فيما تقدمها ظفر المؤمنين وإجلاء الكافرين بلا حرب ولا قتال. ومع أن الأصوات المناسبة للمعنى القوي كانت في الحشر أكثر، فإن أكثرها متباعد عن آية العدول، بخلاف آية الأنفال فكلها متقارب من الكلمة المعدول عنها، ويزيد على ذلك أن الآيات التي ذكرناها من سورة الحشر أطول مما ذكرناه من سورة الأنفال، فكان طبيعياً أن تزيد تلك الأصوات في الحشر. على أن المشكلة بين قوة الصوت والمعنى في الأنفال لا تخفى على من أعطى المقام حقه من الأداء السليم، فإنها تكاد تُشعر بجلبة الحرب وقعقة السلاح، وليست كذلك المشكلة بين رقة الصوت والمعنى في الحشر.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في أولى آيتين من سورة الكهف ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] وفي الثانية ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ^(١) [الكهف: ٨٢] فعدل عن الفعل التام ﴿تَسْتَطِعْ﴾ إلى منقوص التاء ﴿تَسْطِعْ﴾.

والنطق بالفعل التام يحتاج إلى جهد عضلي أكثر مما يحتاج إليه منقوص التاء؛ لصعوبة النطق بالتاء والطاء متواليين؛ لاتحاد مخرجهما وتقاربهما في الصفات ^(٢)، مما يجعل التعبير بـ ﴿تَسْتَطِعْ﴾ أنسب للمعنى القوي، وبـ ﴿تَسْطِعْ﴾ أنسب للمعنى الرقيق. وقد روعي هذا في المتشابهين؛ إذ كان المعنى في الآية الأولى أقوى مما في الثانية؛ ففي الأولى أخبر عن

(١) انظر: كشف المعاني: ٢٤٣، والعقد الجميل: ١١٧.

(٢) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٤٨ و ٦١.

الخضر عزمه على مفارقة موسى - عليهما السلام - وكان ذلك منه بعد أن وعده موسى ألا يسأله عن شيء حتى يبتدئه الخضر بالبيان، ولكن موسى كما تذكر الآيات لم يصبر على عدم السؤال، فعزم الخضر على مفارقتها كما أخبر تعالى:

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]

أما الآية الثانية فكان المعنى فيها أرق، لأنها دارت على تفسير ما فعله الخضر مما لم يصبر عليه موسى، قال تعالى حكاية عن الخضر:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]

فليس في هذه الآية ما في مشابقتها من انفعال الخضر، بل فيها رقة تقتضي التعبير بـ ﴿تَسْطِعْ﴾ الأرق صوتياً، ولهذا عدل إليه.

ويؤكد ما ذكرناه القوة الصوتية في الآية الأولى، ولا سيما في كلمة ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾؛ لتضمنها همزتين مع الكاف - وثلاثتها مما يحتاج إلى جهد عضلي زائد - فضلاً عن كثرة حروفها، فجاء ﴿تَسْطِعْ﴾ مناسباً بقوته الصوتية لذلك. أما الآية الثانية فلم يقع فيها قريباً من كلمة العدول قوة صوتية كسابقتهما، فليس قوله ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ﴾ كقوله ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ﴾ فهنا خفة مناسبة لخفة ﴿تَسْطِعْ﴾ ورقته، تعضد ما قدمناه من مراعاة العدول لمشكلة الصوت للمعنى.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة ما يراعيه العدول بالزوائد والنواقص من مشاكلة الصوت للمعنى قوله تعالى في سورة الشورى ﴿وَالَّذِينَ يَحْنُبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ [الشورى: ٣٧] وفي سورة النجم ﴿الَّذِينَ يَحْنُبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ﴾^(١) [النجم: ٣٢] فعُدل عن نقص ﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ إلى زيادته.

وكلمة ﴿اللَّهُمَّ﴾ من أسهل الكلمات نطقاً وفقاً للضوابط الصوتية التي مهدنا بها، فليس في الزيادة مما يحتاج إلى جهد عضلي إلا همزة ﴿إِلَّا﴾، مما يجعل الزيادة على عمومها

(١) انظر: العقد الجميل: ١٣٧.

سهلة في النطق، ويجعلها من ثم أنسب للمعنى الرقيق، وهذا ما روعي بالعدول عن التشابه؛ لأن المعنى في الشورى أفخم وأقوى، فلم تكن تلك الزيادة مناسبة له، قال تعالى:

﴿... وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَرَهُ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٣٩]

أما آية النجم فالمعنى فيها دون ما سبق في الفخامة، ولذلك عدل إلى زيادة ﴿إِلَّا أَلَمَ﴾ لتشكل برقة أصواتها وسهولتها رقة المعنى، قال تعالى:

﴿..... وَبَحَّرَىٰ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَرَهُ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا أَلَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَعْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُلِّ إِذٍ أَشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَهْتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣١ - ٣٢]

فما في الشورى أقوى معنى؛ لأن الموصوفين فيها أفضل حالاً من الموصوفين في النجم. ويؤكد المشاكلة الصوتية للمعنى في كليهما كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي في الشورى وقلتها في النجم.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ الآية [الأنبياء: ٢٥] وفي سورة الحج ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا﴾ الآية [الحج: ٥٢] فعُدل عن نقص ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى زيادته في الحج. وقد حللنا هذا المثال قريباً في مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للصوت، وهذا موضع تحليل ما راعاه من مشاكلة الصوت للمعنى.

وتقدم في مثال سابق من هذه الفقرة أن النطق بـ ﴿نَبِيٍّ﴾ يحتاج إلى جهد عضلي زائد بسبب ما فيه من إدغام، مما يجعل زيادته أنسب للمعنى القوي، ونقصه أنسب للمعنى الرقيق، وهذا ما روعي بالعدول عن التشابه؛ لأن آية الأنبياء فيها رقة معنوية؛ فجاء نقص اللفظ منها مشاكلاً صوتياً لتلك الرقة، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

أما آية الحج ففيها قوة معنوية تستدعي زيادة ﴿وَلَا نَبِيَّ﴾ ليكون بقوته الصوتية مشاكلاً لتلك القوة المعنوية، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]

فآية الأنبياء ليس فيها سوى الإخبار بالإحياء، وليس هذا في قوة معنى آية الحج؛ لما فيها من الإخبار عن كيد الشيطان بالوساوس ورد الله سبحانه لكيد.

ويؤكد ما سبق كثرة الأصوات المناسبة للمعنى القوي بما فيها الإدغام في آية الحج وقلتها في آية الأنبياء، فتشاكل الصوت والمعنى في كلا المتشابهين.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١ - ١٦٢] وفي سورة آل عمران ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٧ - ٨٨] فعُدل عن نقص ﴿جَزَاءُ هُمْ أَنْ﴾ إلى زيادته في آل عمران. وقد تقدم هذا المثال في مراعاة العدول لتناسب الموافقة اللفظية، وهذا موضع التنبيه على ما راعاه من مشاكلة الصوت للمعنى.

وتتميز هذه الزيادة بجهد عضلي زائد؛ لأن أكثر الأحرف التي فيها تحتاج إلى ذلك؛ وهي الجيم والزاي والهمزة والهاء وهمزة «أَنْ» وإدغام النون، إضافة إلى كثرة أحرف ﴿جَزَاءُ هُمْ﴾، مما يجعل هذه الزيادة أنسب للمعنى القوي، ويجعل النقص أنسب للمعنى الرقيق، وقد روعي هذا بالعدول عن التشابه، ف جاء كل من المتشابهين مشاكلاً صوتياً لمعناه؛ أما آية البقرة فالمعنى فيها أرق من معنى مشابهتها فناسبها النقص، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١ - ١٦٢]

وأما آية آل عمران المشابهة فالمعنى فيها أفخم وأقوى، فاستدعت مناسبتها العدول فيها إلى زيادة ﴿جَزَاءُ هُمْ أَنْ﴾ لتشاكل هذه القوة الصوتية تلك القوة المعنوية، قال تعالى:

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨١) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴿٨٩﴾ الآية [آل عمران: ٨٦ - ٨٩]

فكُفّر الموصوفين في آل عمران أعظم وأشنع من الموصوفين في البقرة، وبهذا كان المعنى في آية آل عمران أبلغ وأقوى.

ويؤيد ذلك الوجه كثرة الأصوات المناسبة للقوة المعنوية في آل عمران وقتلتها في البقرة.

ب - العدول عن التشابه لتجنب ثقل المجاورة الصوتية :

وهي الصورة الثانية من صور التناسب الصوتي التي يُعدل عن التشابه لأجلها، وقد تناولها القدماء فيما سماه بعضهم بتنافر الحروف وآخر بالمعاظلة اللفظية^(١). ومرجع هذا التنافر عندهم إلى تكرار الحروف أو تقاربها في المخرج أو الصفة، ورأى بعضهم أن تكرارها لا يوجب التنافر مطلقاً، فقال رداً على من أطلق: «ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقاً كما يقتضيه كلامه، بل بحسب التركيب، فقد تتكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخفتها على اللسان وسهولة النطق بها، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿قِيلَ يَنْبُوحْ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَمَتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨] كيف اجتمع فيه ست عشرة ميماً في آية واحدة، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع وميمان في موضع، مع ما اشتملت عليه من الطلاوة والرواق الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله»^(٢).

فليس إذن ثمة منافاة بين صورتَي التناسب اللتين يراعيهما العدول؛ صورة تجنب ثقل المجاورة الصوتية الذي غالباً ما يسببه تكرار الأصوات، وصورة مشاكلة الصوت للصوت التي تقوم على تكرار الأصوات أيضاً، وإنما لكل تركيب ما يناسبه.

(١) انظر على سبيل المثال: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ٣٠٩، وشروح التلخيص: ٩٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى: ٢: ٢٧٣. وهو بذلك يرد على ما قاله ابن الأثير في المثل السائر: ١: ٣٠٩ حتى ٣١١.

على أن تحكيم التركيب في تنافر الأصوات أو ثقلها كما سبق في كلام من نقلنا عنه آنفاً تحكيم عام لا بد له من ضوابط تخصصه ولو كانت تقريبية، وهذا ما دعا بعض المعاصرين إلى البحث عنها، فانتهى إلى أن سر الاستثقال والتنافر يرجع إلى سببين هما: «١- اشتغال البيت أو الشطر من البيت على حرف من الحروف التي تتطلب جهداً عضلياً مكرراً عدة مرات في كلمات مختلفة -٢- زيادة تكرار الحرف الهجائي [على] نسبة شيوعه في اللغة العربية»^(١) ثم ذكر أن تلك الحروف التي تحتاج إلى ذلك الجهد حروف الحلق وأقصى اللسان ووسطه وحروف الإطباق، وقد نقلناها عنه سابقاً فيما مهدنا به لمشكلة الصوت للمعنى، ثم قال: «إذا تكرّر حرف من هذه الحروف السابقة في بيت أو شطر منه استطعنا أن نحكم على ثقله في النطق، ثم نفور الأذن منه، ويتبع هذا رداءة الموسيقى اللفظية. وحد هذا التكرار أو عدد المرات التي يسمح بها في تكرار حرف من الحروف لا يمكن معرفته إلا بالرجوع إلى السبب الثاني؛ وهو نسبة شيوع هذا الحرف في اللغة»^(٢). ثم ذكر نسبة شيوع كل حرف استناداً إلى بحث إحصائي في نسبة شيوع الحروف في القرآن الكريم^(٣). ثم انتهى إلى القول: «إذا تصورنا أن الشطر من البيت يشتمل عادة على ما يقرب من ٢٠ حرفاً استطعنا أن نصل إلى الضوابط الآتية»^(٤):

[أ] يغلب أن يشتمل الشطر على ثلاثة أو أربعة من الأحرف الآتية: اللام والميم والنون.

[ب] وعلى مرتين أو ثلاث مرات من الأحرف التالية: الهمزة، الواو، الهاء، التاء، الياء، الباء، الكاف.

[ج] وعلى مرة أو مرتين من الأحرف: الراء، والفاء، والعين، والقاف، والسين، والدال.

[د] وعلى مرة واحدة من الحروف: الذال، الجيم، الحاء.

(١) أنيس، د. إبراهيم، موسيقى الشعر: ٣٥، ووقع في الأصل عن ، وصوابه ما أثبتنا.

(٢) السابق، والصفحة نفسها.

(٣) انظر: السابق: ٣٦.

(٤) السابق، والصفحة نفسها.

[هـ] أما باقي الحروف فتلك هي النادرة الشيوخ^(١) وختم هذه النتيجة بأن بين أن هذه الضوابط لا تعني التحديد الدقيق لعدد مرات التكرار، وإنما هي تقريبية؛ تساعد على التمييز بين التكرار القبيح والمقبول، وبين مراتب ثقل الحروف في النظم بالنظر إلى مخرجها وصفاتها^(٢).

كان لا بد من هذا التمهيد لحاجتنا إلى ضوابطه في التمثيل، ولضرورة إثبات عدم المنافاة بين ما يراعيه العدول من مشكلة صوتية وتجنب لثقل التجاور الصوتي.

وثمة شيء آخر يجب استدراكه على ما تقدم والتنبيه عليه قبل الشروع في التطبيق؛ وهو أن الحكم بالثقل الصوتي لا يكون دقيقاً ما لم يُربط سبب الاستثقال: الجهد العضلي ونسبة الشيوخ بالمعنى، لأن الثقل الصوتي المعتدل قد يكون مستحسنًا مطلوباً للمعنى كما رأينا فيما يراعيه العدول من مشكلة الصوت للمعنى، وكما ستؤكد أمثلة مراعاة العدول لتجنب ثقل المجاورة الصوتية.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لتجنب ذلك الثقل قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١] وفي سورة فاطر ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَكُمْ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾^(٣) [فاطر: ٤٥] فعُدل عن الإضمار في ﴿عَلَيْهَا﴾ إلى الإظهار في ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا﴾.

ذكر الخطيب الإسكافي أن المراد بـ ﴿عَلَيْهَا﴾ الأرض، وهو من الإيجاز، كما تقول العرب: ما فوقها أصدق من فلان ولا تحتها أكذب من فلان، يريدون: فوق الأرض وتحت

(١) انظر: السابق: ٣٦ وما بعدها.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٦٥، والبرهان: ٢٤٤، وملاك التأويل: ٢: ٦٠٦، وكشف المعاني: ٢٢٨، والعقد الجميل: ١١١.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٢٦٥ - ٢٦٦.

السماء، فساغ الإضمار لشهرة الاستعمال في هذا الاسم، ولكون المذكور مشاهد لكل متكلم يقدر على الإشارة إليه^(١). وذكر غيره نحوه^(٢).

ثم أبدى الخطيب الإسكافي وجه التناسب الذي روعي بتجنب الثقل الصوتي، فقال: «مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرَهَا» والمراد: ظهر الأرض، ولم يذكر الظهر في الآية الأولى لتقدم الظاء في المبتدأ بعد «لَوْ»، والظاء تعز في كلام العرب؛ ألا ترى أنها ليست لأمة من الأمم سوى العرب، فلما اختصت بلغتها وتجنبت إلا فيها استعملت في الآية الأولى، واستعملت في الآية الثانية في جواب ما بعد «لَوْ» لهذا، ولم تجيء في هذه السورة إلا في سبعة أحرف تكررت؛ نحو: الظلم، والنظر، والظل، وظل وجهه، والظعن، والعظيم، والوعظ. وأجريت مجرى ما استعمل من الحروف، فلم يُجمع بينهما في جملتين معقودتين عقد كلام واحد وهما ما بعد «لَوْ» وجوابها. وحسن التأليف وقصد الحروف مراعى في الفصاحة لا يخفى على أهل البلاغة^(٣) ونقل الكرمانى ذلك عنه ملخصاً، وتابعه ابن جماعة^(٤).

فالوجه كما نبه الخطيب الإسكافي أن الإضمار في آية النحل استدعاه «يُظْلِمُهُمْ»، لكيلا يقع ثقل صوتي بتقارب الظاءين، لأن الظاء حرف ثقل قليل الشيوخ كما تقدم في الضوابط الممهدة، وكما نبه الخطيب الإسكافي وأكد بالإشارة إلى قلة تكرار هذا الحرف في سورة النحل، فجملة ما تكرر منه في السورة كلها بالاستناد إلى ما أشار إليه الخطيب عشرون مرة. ولما لم يقع في آية فاطر ظاء لم يكن ثمة ثقل صوتي في الإظهار، فعُدل إليه فقليل «عَلَى ظَهْرَهَا» كما يفيد توجيه الخطيب. وهو صحيح، بشرط تقييده بأن المعنى ليس

(١) انظر: البرهان: ٢٤٤، وكشف المعاني: ٢٢٩، وغير ذلك.

(٢) درة التنزيل: ٢٦٦، ووقع في الأصل الظفر فصوبناه بـالظعن استرشاداً بما نقل الكرمانى عنه في البرهان. أما الأحرف السبعة المكررة التي وقع فيها ظاء في سورة النحل فهي: ظالمي أنفسهم ٢٨، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ٣٣، وظلموا ٤١، وبظلمهم ٦١، وظلموا ٨٥، ولا يظلمون ١١١، وهم ظالمون ١١٣، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ١١٨، وينظرون ٣٣، فانظروا ٣٦، وينظرون ٨٥، ويتفياً ظلاله ٤٨، وظل ٥٨، وظلالاً ٨١، وظعنكم ٨٠، وعذاب عظيم ٩٤ و ١٠٦، ويعظكم ٩٠، والموعظة ١٢٥. ومجموع ذلك عشرون ظاء.

(٣) انظر: البرهان: ٢٤٥ - ٢٤٦، وكشف المعاني: ٢٢٩.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٢٢٢، والبرهان: ٢٢٤، وملاك التأويل: ٢: ٥٢١، والعقد الجميل: ٩٣.

من القوة بالدرجة التي تستدعي مشكلة الثقل الصوتي، ودليل ذلك أن الظاءين وقعتا في جملتين متجاورتين بخلاف ما ذكره الخطيب؛ نحو قوله تعالى ﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظُرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] وإنما وقعتا كذلك لمشكلة الصوت للمعنى كما شرحنا في كلامنا على هذه الآية في مثال «نزل - أنزل» بل قد تقارب التجاور بين الظاءين تقارباً شديداً؛ فوقعتا في كلمتين متتابعتين ليس بينهما فاصل؛ نحو قوله تعالى ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغِيَظُ﴾ [آل عمران: ١٣٤] و﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] و﴿وَنَدْخُلُهُمْ ظُلَامًا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] و﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] و﴿وَمَا يُقْلَهُ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] و﴿وَلَقَدْ ظَنَنَّا أَنَّ السَّوْءَ﴾ [الفتح: ١٢] فهذا التقارب الذي سها عنه الخطيب الإسكافي - رحمه الله - يدل على أن توجيهه الدائر على تجنب ثقل المجاورة الصوتية في المتشابهين لا يصح إلا إذا قُيد بعدم القوة المعنوية فيهما.

ومن أمثلة العدول بالمبدلات أيضاً لمراعاة تجنب ذلك الثقل قوله تعالى في سورة هود حكاية عن قوم صالح - عليه السلام - ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ شَيْئًا مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢] وفي سورة إبراهيم حكاية عن القوم المكذبين لرسولهم ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ شَيْئًا مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾^(١) [إبراهيم: ٩] فعدل عن التعبير بالتمام في ﴿إِنَّا﴾ إلى التعبير بنقص النون في ﴿إِنَّا﴾ في سورة إبراهيم.

ونقص النون من ﴿إِنَّا﴾ جائز تخفيفاً^(٢). و﴿نَدْعُونَآ﴾ في آية هود بنون واحدة هو على الأصل وكما يجب، لأنها ضمير عائد على قوم صالح، وهم المتكلمون بالفعل ﴿نَدْعُونَآ﴾ يخاطبون به صالحاً - عليه السلام - قال تعالى ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْحُومًا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَآ﴾ [هود: ٦٢]. وكذلك ﴿نَدْعُونَآ﴾ في آية إبراهيم بنونين على الأصل وكما يجب، لأن النون الأولى علامة رفع الفعل، والثانية ضمير عائد على أقوام الرسل، وهؤلاء الأقوام هم المتكلمون بـ ﴿نَدْعُونَآ﴾ يخاطبون به رسولهم، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٢١.

(٢) انظر: البرهان: ٢٢٤، وملاك التأويل: ٢: ٥٢١ - ٥٢٢، وغيرهما.

إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ [إبراهيم: ٩]

فلما كان في آية هود ﴿تَدْعُونَا﴾ بنون واحدة لم يُستثقل وقوع ﴿إِنَّا﴾ فيها بنونين - إحداهما مشددة - بخلاف آية إبراهيم فإنه يُستثقل فيها لوقوع ﴿تَدْعُونَا﴾ فيها بنونين لازم ذكرهما، فعدل إلى ﴿إِنَّا﴾ تجنباً للثقل الناشئ من اجتماع أربع نونات، كما ذكر الكرمانى وأبو جعفر بن الزبير وغيرهما^(١).

ومع أن النون ليست ثقيلة في النطق وهي كثيرة الشيوخ كما تقدم، فكان يمكن أن يقع هنا أربع نونات مع شيء من الثقل على اللسان لو كان ثمة قوة معنوية تتطلب المشاكلة، ولكن لم تكن، فالمعنى في آية إبراهيم أرق مما في آية هود كما يتضح من نص الآيتين السابق ذكرهما.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لتجنب ذلك الثقل قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] وفي سورة الزمر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾^(٢) [الزمر: ١٨] فعدل عن نقص «هم» إلى زيادته في الزمر.

والظاهر أن النقص في الأنعام لتجنب ثقل تكرر الهاء ست مرات في جملة واحدة، قال تعالى :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

فلو تكرر كذلك لتجاوز نسبة شيوعه بقدر الضعف أو أكثر، وهو إضافة إلى ذلك مما يحتاج إلى جهد عضلي زائد، ويزيد هذا الجهد هنا أنه مضموم ثلاث مرات، ولو زيد «هم» لصارت أربعاً، والضم ثقيل، فكان المناسب بسبب هذه الدواعي الصوتية تخفيف الثقل بنقص ﴿هُم﴾.

(١) انظر: البرهان: ٢٢٤، وملاك التأويل: ٢: ٥٢٢، والسيوطي، معترك الأقران: ٣: ٣١٢، وابن عاشور، محمد بن الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ١٢: ١١٠، و١٣: ١٩٨.
(٢) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ١٨١.

ولما خلا سياق آية الزمر من تلك الدواعي عُدل إلى زيادة ﴿هُمْ﴾ فجاء على الأصل، ولا سيما أن فيه ما يعادله - وهو ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ﴾ - قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لتجنب ذلك الثقل قوله تعالى في سورة البقرة

﴿وَادْخُلُوا آلَ بَابِ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] وفي سورة الأعراف

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا آلَ بَابِ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾^(١) [الأعراف: ١٦١] فعُدل

عن تقديم الأمر بالسجود إلى تأخيره. وقد تقدم الكلام على مناسبة ذلك في مراعاة العدول لمشكلة الصوت للصوت، ولكن ثمة وجه آخر من المناسبة هذا موضع القول فيه.

أما آية البقرة فليس فيها ثقل صوتي يستدعي تقديماً أو تأخيراً، وليس في مجاورة ﴿حِطَّةٌ﴾ التي فيها حرفان ثقلان الحاء والطاء لـ ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾ التي فيها ثلاثة الخاء والطاء والكاف؛ ليس في هذه المجاورة ثقل صوتي؛ بسبب مدي الفتح في ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾، وتناسب أحدهما مع فتح الطاء من ﴿حِطَّةٌ﴾.

وأما آية الأعراف فوقع فيها ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾، وهي أثقل من ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾، لأنها تضمنت حرفاً رابعاً ثقيلًا زيادة على الثلاثة التي في تلك، وزاد ثقلها كثرة أحرفها؛ فهي من ثمانية أحرف وتلك من سبع، وانضاف إلى ذلك أن مد الطاء فيها ثقيل لكسره، وفي تلك خفيف لفتحها؛ لأن الفتحة أخف من الكسرة^(٢). وبالجمله فإن ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾ أثقل من ﴿خَطِيئَتَكُمْ﴾ لاحتياجها إلى جهد عضلي أكبر، فلم تحسن مجاورتها لـ ﴿حِطَّةٌ﴾ في الأعراف لتضمن هذه الكلمة حرفين ثقيلين يزداد الكلام بهما ثقلاً ويتطلب جهداً أكبر، فكان المناسب أن يُتجنب

(١) تقدم في العدول بمقدم ومؤخر المتعاطفين من الجمل، وفي مراعاة العدول لمشكلة الصوت للصوت.

(٢) انظر: سيبويه، الكتاب: ٤ : ١٦٧.

هذا الثقل بالمباعدة بين ﴿حِطَّةٌ﴾ و﴿خَطِيئَتِكُمْ﴾، وهو ما استدعى العدول إلى تقديم ﴿حِطَّةٌ﴾ وتأخير الأمر بالسجود.

على أنه كان يمكن أن يقع ذلك الثقل في آية الأعراف لو كان ثمة قوة معنوية تتطلب المشاكلة الصوتية، ولكن الآية خلت من ذلك، فكان العدول لتجنب الثقل أنسب، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا

الْبَابَ سَجْدًا تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١]

ج - العدول عن التشابه لتناسب الموازنة الصوتية :

الموازنة الصوتية صورة ثالثة من صور التناسب الصوتي التي يراعيها العدول عن التشابه. وقد بحثها البلاغيون القدماء تحت هذا الاسم تارة، وتحت أسماء أخرى تارة؛ كالتعادل، والتكافؤ^(١)، واعتدال الوزن، والتشطير، والمماثلة^(٢)، ويريدون بها - وإن اختلفوا في بعض الفروع - تماثل ألفاظ الكلام أو بعضها في الوزن؛ كالتماثل بين كلمات الفاصلة؛ نحو ﴿وَنَارُ مَصْفُوفَةٍ﴾ ⑤ وَزَرَّائِي مَبْنُوءَةٌ﴾ [الغاشية: ١٥ - ١٦] أو بين كلمتين متجاورتين، أو بين كلمات متناظرة الموضع من القرينتين؛ كالكتاب والصراط، والمستبين والمستقيم في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ ⑥ وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) [الصافات: ١١٧ - ١١٨].

ومن الموازنة أيضاً ما سماه بعض المعاصرين الموازنة الموضعية، وذلك «بأن يكون لفظ مناظراً لآخر في موضعه من القسيم الذي يوازنه»^(٤) ويمكن أن يُمثل له بآيتي الصفات السابقتين، لأن أجزاء الثانية مناظرة لأجزاء الأولى في الموضع، فالثانية مركبة من فعل ففاعل فمفعول أول فثان فصفة، ولكل من هذه نظير في الأولى؛ إذ الأجزاء فيها مرتبة نفس الترتيب.

(١) انظر: إسماعيل، عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي: ٢٢٣.

(٢) انظر: مطلوب، د. أحمد، معجم المصطلحات البلاغية: ١٤٣ و ٣٥٢ و ٦٤٦ و ٦٤٧ و ٦٥٥ و ٦٥٦.

(٣) انظر: الخطيب القزويني، الإيضاح؛ ضمن شروح التلخيص: ٤: ٤٥٥ وما بعدها، وابن أبي الإصبع، بديع القرآن: ١٠٧، وتحرير التحبير، له: ٢٩٧. وانظر أيضاً ما نقله د. أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغية: ٦٤٦ من تعريف ابن مالك في المصباح: ٨٠.

(٤) الطيب المجذوب، د. عبد الله، المرشد: ٣١٢.

ويمكن أن يُدخل في الموازنة أيضاً ما سماه بعض القدماء المؤاخاة بين المباني أو المؤاخاة في الألفاظ؛ وهو مراعاة الأحكام اللفظية كالأفراد والتثنية والجمع وغير ذلك، فإذا كان الأول مفرداً استُحب في مقابله الأفراد، وهكذا إذا كان جمعاً قوبل بجمع، ولذلك عابوا على أبي نواس جمعه بين مفرد وجمع في معنى واحد في قوله:

.....جَلَّتْ عَنِ النَّظَرَاءِ وَالْمِثْلِ

واستحسنوا المؤاخاة بين جمعين: النظراء والأمثال، أو بين مفردين: النظير والمثل^(١). وجملة ما ذكره من تلك الموازنة راجعة إلى نوعين؛ موازنة تركيبية: يكون التركيب فيها موازناً لنظيره موازنة موضوعية فقط، أو موضوعية صرفية أو عروضية. وموازنة إفرادية: تُوازن فيها كلمة كلمة أخرى مجاورة أو موازية.

وفي النوعين الموازنة حاصلة في الصورة الصوتية، وبها كما رأى ضياء الدين بن الأثير وغيره يكتسب الكلام طلاوة ورونقاً، ويكون الإيقاع أخذاً^(٢)، ولذلك يراعيها القرآن في عدوله عن التشابه، ولا سيما أن معظم آياته كما رأى ابن الأثير جارية على منهجها، وأنه لا يكاد يخرج منه شيء عن السجع والموازنة^(٣).

وستتناول مراعاة العدول لهذه الصورة من التناسب في فقرتين تبعاً لنوعيهما؛ الموازنة التركيبية فالإفرادية. ولا مناص من التداخل بين أمثلة هذين النوعين، بيد أن العمدة في وضع المثال في هذا النوع أو ذاك هو آية العدول.

– العدول عن التشابه لتناسب الموازنة التركيبية :

أ – العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذا اللون من التناسب قوله تعالى في سورة البقرة ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] وفي سور الأنعام والأعراف والمؤمنين ﴿لَا تُكَلِّفُ

(١) انظر: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ٣: ١٥٦ - ١٥٧، وابن النقيب، مقدمة تفسير ابن النقيب: ١٩١، وابن حمزة اليمني، الطراز: ٢: ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٢) انظر: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ٢٩١، والجندي، علي، صور البديع؛ فن الأسجاع: ٢: ٥٠، وإسماعيل، عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي: ٢٢٦.

(٣) انظر: ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ١: ٢٩٣.

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا^(١) [الأنعام: ١٥٢، والأعراف: ٤٢، والمؤمنون: ٦٢] فعُدل القرآن عن بناء الفعل للمجهول إلى المعلوم في السور الثلاثة.

والوجه أن في آية البقرة ما يستدعي الموازنة التركيبية في بناء الفعل للمجهول، قال تعالى:

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَلَا تُضَارَّ وَلَا تَكُلُّ وَلَا تَكُلُّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

فكان ﴿تُكَلِّفُ﴾ موازناً لـ ﴿تُضَارُّ﴾ في البناء للمجهول، و﴿نَفْسٌ﴾ موازناً لـ ﴿وَلَدَةٌ﴾ في نيابة الفاعل.

ولم يقع في السور الثلاثة ما يستدعي تلك الموازنة، فعُدل إلى التعبير بالمعلوم. ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعلى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] وفي سورة الشمس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(٢) [الشمس: ٩] فعُدل القرآن عن التعبير بصيغة تفعل إلى صيغة فاعل.

أما التعبير بصيغة تفعل فلموازنة ﴿فَصَلِّ﴾ التي هي فاصلة الآية التالية موازنة إفراد، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ ❶ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى [الأعلى: ١٤ - ١٥]

لأن الكلمتين بوزن عروضي واحد.

وأما العدول إلى التعبير بصيغة فاعل فروعيت به الموازنة التركيبية بين آيته والآية التالية له، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ❷ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [الشمس: ٩ - ١٠]

فلما وقع ﴿قَدْ﴾ بإزاء ﴿قَدْ﴾، و﴿أَفْلَحَ﴾ بإزاء ﴿خَابَ﴾، و﴿مَنْ﴾ بإزاء ﴿مَنْ﴾، اقتضى تناسب الموازنة العدول إلى ﴿زَكَّاهَا﴾ ليقع بإزاء ﴿دَسَّاهَا﴾.

(١) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٢٨.

(٢) انظر: العقد الجميل: ١٥٠.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وفي سورة لقمان ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(١) [لقمان: ١٢] فعدل القرآن عن ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ إلى ﴿حَمِيدٌ﴾.

أما آية آل عمران فجاء التعبير فيها موازناً لكلمات الفواصل التي تقدمته، قال تعالى:

﴿... قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٩٥)

﴿... لِلَّذِي بَكَتْهُ مَبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٩٦)

﴿... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥-٩٧]

وأما آية لقمان فوقع في الآية التالية لها ما يستدعي الموازنة التركيبية، وهو ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والموازن لذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، فكان العدول إليه أنسب، ولذلك عدل إليه عما وقع في مشابهه من قوله ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، قال تعالى:

﴿..... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [١٢]

... لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم [١٣] ﴿﴾ [لقمان: ١٢ - ١٣]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣] وفي سورة فصلت ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾^(٢) [فصلت: ٥١] فعُقبَت الأولى بـ ﴿كَانَ يَؤُوسًا﴾ وعدل إلى تعقيب الثانية بـ ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

أما تعقيب الأولى فمتناسب لكلمات الفواصل التي فصلت بها الآيات المتقدمة، وهي «نصيراً، زهوقاً، خساراً» لأنها مع ﴿يَؤُوسًا﴾ بوزن عروضي واحد، قال تعالى:

﴿..... واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ [٨٠]

وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً [٨١]

..... ولا يزيد الظالمين إلا خساراً [٨٢]

(١) انظر: السابق: ٢٣ و ٤٣.

(٢) انظر: السابق: ١١٥.

..... وإذا مسه الشر كان يؤسأ [٨٣] ﴿[الإسراء: ٨٠ - ٨٣]

وأما العدول إلى ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ في فصلت فاستدعاه تناسب الموازنة الموضوعية مع ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ و﴿شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فيما اكتنف آية العدول، لأن في هذين كما في آية العدول مجروراً فصفته، وكلاهما بوزن واحد في آية العدول وفيما اكتنفها، قال تعالى:

﴿..... فَلَنتَبَشِّرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمَلُوا وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ [٥٠]

وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض [٥١]

قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد [٥٢] ﴿

[فصلت: ٥٠-٥٢]

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة هذا اللون من تناسب الموازنة قوله تعالى في سورة النحل: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩] وفي سورة الزمر ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَيُكْفَىٰ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢] وكذلك في سورة غافر ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَيُكْفَىٰ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ^(١) [غافر: ٧٦] فعدل القرآن عن زيادة اللام في ﴿فَلَيْسَ﴾ إلى نقصها من آيتي الزمر وغافر.

أما الزيادة فمناسبة الزيادة في ﴿وَلَنَعْمَ﴾ فيما تلا الآية كما نبه الخطيب الإسكافي وغيره ^(٢)، وقد حصلت بهذه المناسبة موازنة تركيبية موضوعية بين ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ و﴿وَلَنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ في الآيتين المتتاليتين، قال تعالى:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

..... وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿[النحل: ٢٩ - ٣٠]

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٦٢، و البرهان: ٢٤٣، وملاك التأويل: ٢: ٦٠٠، وكشف المعاني: ٢٢٦ - ٢٢٧، والعقد الجميل: ١١٠.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٦٣، والبرهان: ٢٤٣، وكشف المعاني: ٢٢٧.

فكان ﴿فَلَيْتَ﴾ مع ﴿وَلَنِعْمَ﴾ بوزن واحد، وتوازنت الجملتان موازنة موضعية في حرف الوصل فاللام فالفعل فالفاعل فالمضاف إليه.

وأما العدول إلى نقص اللام من آية الزمر فاستدعاه تناسب الموازنة التركيبية الموضعية بين ﴿فَيْتَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وبين ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾، وإن فصل بينهما آية، قال تعالى:

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَيْتَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٦)

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٦﴾

..... نَبَّأُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٧٦﴾ [الزمر: ٧٢ - ٧٤]

فالبعدول إلى نقص اللام توازن ﴿فَيْتَسَ﴾ مع ﴿فَنِعْمَ﴾، وحصلت الموازنة الموضعية بين الجملتين في حرف الوصل فالفعل فالفاعل فالمضاف إليه.

ولم يقع في آية غافر ولا فيما اكتنفها ما يستدعي الموازنة بزيادة اللام، فعُدل إلى نقصها، وهو أنسب لأنه أخصر.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النمل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤] وفي سورة القصص ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩] فزيدت «إن» واللام في النمل، وعُدل إلى نقصانهما في آية القصص. وقد تقدم شرح وجه من أوجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب المشاكلة اللفظية، وثمة وجه صوتي هذا موضع بيانه.

أما الزيادة في النمل فموازن بها قوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ الذي زيد فيه «إن» واللام أيضاً، وذلك في الآية التي تقدمت الموجهة، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣)

... وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٣﴾ [النمل: ٧٣ - ٧٤]

فكان ﴿لَيَعْلَمَ﴾ مقارباً في الوزن لـ ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾، وما قبل هذا وذاك في الآيتين متناسب لتطابقه فيهما.

وأما العدول إلى النقص في آية القصص فروعيت به موازنة نظيره فيما تقدم الآية، قال تعالى:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (١٩) [القصص: ٦٨ - ٦٩]

فبالعدول حصلت الموازنة بين ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿يَخْلُقُ﴾، و﴿مَا﴾ و﴿مَا﴾، و﴿تَكُنُّ﴾ و﴿يَشَاءُ﴾، وبالعَدول أيضاً حصلت الموازنة الموضعية؛ إذ إن التركيبين متناظران في الافتتاح بالواو فالمبتدأ فالمضارع فالموصول فالمضارع.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] وفي سورة فاطر ﴿هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَاءَ شَرَابُهُ﴾^(١) [فاطر: ١٢] فعُدل إلى زيادة ﴿سَاءَ شَرَابُهُ﴾. والنقص من آية الفرقان مناسب، لأنه به يتحقق التوازن مع ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]

فهذا توازن عروضي مع موازنة موضعية.

وعُدل إلى الزيادة في آية فاطر لداعية معنوية، وهي قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾، فافتضى هذا عدم الموازنة؛ لأنها تسوية، قال تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَاءَ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]

فالعَدول عن التشابه هنا ليشترك الصوت والمعنى في أداء المراد؛ فيدل عدم التوازن الصوتي على عدم الاستواء المعنوي؛ بخلاف آية الفرقان التي فيها ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي خلطهما، فكان التوازن الصوتي هناك أنسب لمعناها.

(١) انظر: العقد الجميل: ١٢٨.

وهذا المثل يدل على أن مراعاة العدول للموازنة الصوتية ليست مراعاة لزينة لفظية مجردة، وإنما هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعنى، بل هي لا تنفك عنه. ولا نريد أن نقرن هنا تناسب الموازنة الصوتية بالتناسب المعنوي فيما سيأتي من أمثلة، لأن ما يعيننا هنا هو التمثيل لمراعاة العدول لتناسب الموازنة الصوتية المجردة، ولأنه كفانا مؤونة ربط ذلك بالمعنى ما ذكرناه في المثل السابق وما أفردناه من مراعاة العدول لمشكلة الصوت للمعنى.

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لمراعاة هذا اللون من تناسب الموازنة قوله تعالى في سورة النساء ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وفي سورة النحل ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾^(١) [النحل: ٨٩] فأخر ﴿شَهِيدًا﴾ في آية النساء ثم عدل إلى تقديمه في النحل. أما تأخيرها في آية النساء فليقع فاصلة للآية ويوازن كلمات الفواصل التي اكتتفتها، قال تعالى :

﴿.... وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَكُمْ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۖ﴾ (٢٨)

.... وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۖ﴾ (٣٩)

.... وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾ (٥٠)

.... وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۖ﴾ (٦١)

.... وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ۖ﴾ [النساء: ٣٨ - ٤٢]

وأما العدول إلى تقديمه فاستدعته الموازنة الموضوعية مع ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾، قال أبو جعفر ابن الزبير: «آية النحل تقدمها قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩] فتقدم اسم الشهيد على المشهود عليه، فورد ما نُسق على ذلك من الإخبار بشهادته على أمته مرتباً على ما تقدم من مقتضى النظم في التناظر والتناسب، فقليل: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩] متوازناً مع قوله ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٨٩]»^(٢).

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) السابق: ١: ٢٠١.

- العدول عن التشابه لتناسب الموازنة الإفرادية :

أ - العدول بالمبدلات :

ومن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذا اللون من التناسب قوله تعالى في سورتي الحجر والذاريات ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥، والذاريات: ١٥] وفي سورة المرسلات ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١] فعُدل عن ﴿جَنَّاتٍ﴾ إلى ﴿ظِلَالٍ﴾. وقد بينا وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول للموافقة اللفظية، وثمة وجه آخر صوتي؛ هذا موضع بيانه.

وقد قلنا هناك إن التعبير بـ ﴿جَنَّاتٍ﴾ هو المطرد في القرآن الكريم فيما يشبه نمط آيتي الحجر والذاريات.

أما انفراد آية المرسلات بالعدول عن مشابهاتها النمطية وغير النمطية إلى التعبير بـ ﴿ظِلَالٍ﴾ فاستدعاه - والله أعلم - تناسب الموازنة الإفرادية مع ﴿فُوكَهُ﴾، قال تعالى :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝١١﴾

وَفُوكَهُ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝١٢﴾ [المرسلات: ٤١ - ٤٢]

لما بين الكلمتين من تقارب في الصيغة والوزن.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ ۝ آل عمران: ١٩٨﴾ وفي سورة الزمر ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ ۝ (١) [الزمر: ٢٠] فعُدل عن ﴿جَنَّاتٍ﴾ إلى ﴿عُرفٌ﴾.

والعبر بـ ﴿جَنَّاتٍ﴾ هو النمط المطرد في القرآن الكريم (٢). وانفردت آية الزمر بالعدول إلى ﴿عُرفٌ﴾ لاستدعاء الموازنة مع ﴿ظِلَالٍ﴾ في الإخبار عن أهل النار، قال تعالى :

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمَبِينُ ۝١٦﴾

لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ ۝١٧﴾

(١) انظر: العقد الجميل: ٤٩.

(٢) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ١٨١ - ١٨٢.

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظُّلُمَاتِ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾
 الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَكْثَرُ ﴿١٨﴾
 أَفَمَن حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَفَأَن تُنْفَذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾

لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّن فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّيِّنَةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... ﴿الآية [الزمر: ١٥]

[٢٠ -

وتناسب الموازنة بين الكلمتين ظاهر مع أن الفاصل بينهما طويل.
 ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاوَكُهُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ١٩]
 وفي سورة الزخرف ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاوَكُهُ كَثِيرَةٌ﴾^(١) [الزخرف: ٧٣] فعدل عن الجمع إلى الأفراد.
 قال الكرمانى: «راعى في السورتين لفظ الجنة، وكانت في هذه السورة ﴿جَنَّاتٍ﴾ بالجمع، فقال ﴿فَاوَكُهُ﴾ بالجمع، وفي الزخرف ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ بلفظ الواحدة، وإن كانت هذه جنة الخلد، لكن راعى اللفظ فقال ﴿فِيهَا فَاوَكُهُ﴾»^(٢) أي أنه روعي تناسب الموازنة في الجمع والأفراد، فوازن ﴿فَاوَكُهُ﴾ ﴿جَنَّاتٍ﴾ في سورة المؤمنين، قال تعالى:

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَاوَكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩].

وثمة موازنة تركيبية أيضاً حصلت بالتعبير بالجمع هنا كما نبه الكرمانى^(٣)، وهي بين ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاوَكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وبين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فيما بعد الآية، قال تعالى:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورٍ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكْلَيْنِ ﴿٢٠﴾

وَلَٰن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُزَكِّيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾

[المؤمنون: ٢٠-٢١]

(١) انظر: البرهان: ٢٧٥، والعقد الجميل: ١٢٦.

(٢) البرهان: ٢٧٥.

(٣) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

وفي الزخرف عدل إلى التعبير بـ ﴿فَكَهْءٌ﴾ لموازنة الأفراد في ﴿الْجَنَّةِ﴾ كما نبه الكرمانى فيما سبق، قال تعالى:

﴿وَلَكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْفَّيْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٦﴾

لَكَرَفِهَا فَكَهْءٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ [الزخرف: ٧٢ - ٧٣]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] وفي سورة الكهف ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾^(١) [الكهف: ٢] فعُدل عن ﴿كَبِيرًا﴾ إلى ﴿حَسَنًا﴾.

أما التعبير بـ ﴿كَبِيرًا﴾ في آية الإسراء فمناسب لكلمات الفواصل التي فصلت بها الآيات المكتنفة، وهي «حصيراً، أليماً، عجولاً» لأنها و﴿كَبِيرًا﴾ بوزن عروضي واحد، قال تعالى:

﴿..... وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٨﴾
وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٩﴾

وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ [الإسراء: ٨ - ١١]

وأما العدول إلى التعبير بـ ﴿حَسَنًا﴾ فاستدعاه تناسب الموازنة الإفرادية مع الفواصل التي فصلت بها الآيات المكتنفة، وهي «عَوْجًا، أبداً، ولداً، كذباً، أسفاً، عملاً، جُرُزاً، عجباً، رشداً، عدداً، أمداً» فكلها مع ﴿حَسَنًا﴾ بوزن عروضي واحد، قال تعالى:

﴿..... وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ١﴾ فِيمَا يَنْزِدُ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ٢ مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ٣ وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ٥﴾
الآيات [الكهف: ١ - ٥]

(١) انظر: البرهان: ٢٤٩، والعقد الجميل: ١١٣.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة يونس ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ [يونس: ١٢] وفي سورة الزمر ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ [الزمر: ٨] وكذلك في آية أخرى من سورة الزمر ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾^(١) [الزمر: ٤٩] فعدل عن التعريف إلى التنكير.

أما التعبير بالتعريف فذكر الكرمانى أنه إشارة إلى ما تقدم من لفظ ﴿الشَّرُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الآية [يونس: ١١ - ١٢] فإن الضر والشر كما قال الكرمانى واحد^(٢). والذي يعيننا هو الموازنة الصوتية، وهي حاصلة بين الكلمتين.

وفي آيتي الزمر جاء ما يستدعي الموازنة في التنكير؛ وهو ﴿نِعْمَةٌ﴾، فكان العدول إلى التنكير أنسب؛ ففي الآية الأولى:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ...﴾ [الزمر: ٨] وفي الثانية:

﴿... فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا...﴾ [الآية [الزمر: ٤٩].

فتنكير ﴿نِعْمَةٌ﴾ يناسبه تنكير ﴿ضُرٌّ﴾ لما بينهما من المقاربة في الوزن العروضي، ولم يكن ليناسب هنا التعبير بـ ﴿الضُّرُّ﴾ معرفاً لزوال تلك المقاربة، فقد حصلت الموازنة هنا كما كانت حاصلة في آية يونس، وجاء كل من المتشابهين في موقعه الأنسب له.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة التوبة ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وفي سورة الفتح ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الفتح: ٢٨] وفي سورة الصف كما في التوبة ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٣) [الصف: ٩] فعدل عن ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ إلى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

(١) انظر: البرهان: ٢١٤، والعقد الجميل: ٩٢.

(٢) انظر: البرهان: ٢١٤.

(٣) انظر: العقد الجميل: ٨٩ - ٩٠.

شَهِيدًا ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ، والعدول بالجملة عن ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ إلى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ووجه ذلك أن التعقيب بـ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ موازن به ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فيما تقدم آيتي التوبة والصف، قال تعالى في التوبة:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٢ - ٣٣].

وقال سبحانه في الصف:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨ - ٩]

ولم يقع في سياق آية الفتح ما يطلب تلك الموازنة، وإنما اكتنفها آيات فصلت بكلمات على وزن فعيل، فاقتضى تناسب الموازنة الإفرادية العدول عن التشابه لتكون الآية مفصولة بـ ﴿شَهِيدًا﴾ الذي هو على وزن فعيل، ف قيل: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، قال تعالى:

﴿.....وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

.....لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

.....وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

.....فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

....وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٥ - ٢٩]

٢ - العدول بالزوائد والنواقص:

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة هذا اللون من التناسب قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وفي سورة ق ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ

بَعِيدٌ [ق: ٣١] فَعُدِلَ إِلَى زِيَادَةِ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ مَنَاسِبَةِ ذَلِكَ فِي مِرَاعَاةِ الْعُدُولِ لِلْمَشَاكِلَةِ اللَّفْظِيَّةِ، وَثَمَّةَ وَجْهٍ آخَرَ صَوْتِي؛ هَذَا مَوْضِعُ بَيَانِهِ.

أَمَّا النِّقْصُ فِي الشُّعْرَاءِ فَلْتَنَاسِبِ الْمَوَازَنَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝﴾ [الشُّعْرَاءُ: ٩٠ - ٩١]

فَ ﴿أَزْلَفَتِ﴾ بوزن ﴿وَبُرِزَتِ﴾، وَبَيْنَ الْجَمْلَتَيْنِ أَيْضاً مَوَازَنَةٌ مَوْضِعِيَّةٌ، فَقَدْ رُبَّتِ الْعُنَاصِرُ فِي كِلَيْهِمَا تَرْتِيباً مُتَوَازِياً؛ الْعَاطِفُ فَالْفِعْلُ فَثَابِتُهُ فَالْجَارُ وَمَجْرُورُهُ.

وَأَمَّا آيَةُ قُفْلَيْسٍ فِي سِيَاقِهَا مَا يَسْتَدْعِي تِلْكَ الْمَوَازَنَةَ، وَإِنَّمَا اكْتَنَفَهَا آيَاتٌ؛ فَاصِلَةٌ كُلِّ مِنْهَا بوزن «فَعِيلٌ»، فَرُوعِيَّتُ مَوَازِنَتِهَا الْإِفْرَادِيَّةُ بِالْعُدُولِ عَنِ التَّشَابُهِ إِلَى زِيَادَةِ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الْفَاصِلَةِ ﴿بَعِيدٍ﴾ بِنَفْسِ الْوِزْنِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝ وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ۝ مَن حَشَى الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۝﴾ [ق: ٣٠ - ٣٣]

وَجَرَتْ فَوَاصِلُ الْآيَاتِ عَلَى هَذَا النِّهْجِ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَهُوَ تَوَازُنُ بَيْنِ لَوْلَا الْعُدُولِ لِمَا حَصَلَ.

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ أَيْضاً قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعْرَاءِ ﴿أَن أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ [الشُّعْرَاءُ: ٥٢] وَفِي سُورَةِ الدُّخَانِ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾^(١) [الدُّخَانُ: ٢٣] فَعُدِلَ عَنِ نَقْصِ «لَيْلًا» إِلَى زِيَادَتِهِ.

وَلَمْ يَقَعْ فِي آيَةِ الشُّعْرَاءِ وَلَا فِيهَا اكْتَنَفَهَا مَا يَسْتَدْعِي تِلْكَ الزِّيَادَةَ لِتَحْقِيقِ مَوَازَنَةِ صَوْتِيَّةٍ. وَعُدِلَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي آيَةِ الدُّخَانِ مِرَاعَاةً لِمَا يَوَازِنُهَا مِنْ قَوْلِهِ ﴿رَهَوًّا﴾ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ لِآيَةِ الْعُدُولِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ۝ وَأَتْرِكِ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ ۝﴾ [الدُّخَانُ: ٢٣ - ٢٤]

(١) انظر: العقد الجميل: ١٢١.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في أربع آيات من ثلاث سور ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا - أَيْنَا﴾ [المؤمنون: ٨٢، والصفات: ١٦ و ٥٣، والواقعة: ٤٧] وفي سورة ق ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا - ذَلِكَ﴾ ^(١) [ق: ٣] فعدل عن زيادة ﴿وَعِظْمًا﴾ إلى نقصه من آية ق.

ووجه ذلك أنه لما وقع في الآيات الأربع ﴿تُرَابًا﴾ و﴿إِنَّا﴾، وهما بوزن عروضي واحد كانت زيادة ﴿عِظْمًا﴾ بينهما التي هي بنفس الوزن أنسب شيء.

ولما لم يقع في آية ق من ذينك المتوازنين سوى ﴿تُرَابًا﴾ لم تقو مناسبة زيادة ﴿عِظْمًا﴾ فيها قوتها في مشابهاتها، فلهذا - والله أعلم - عدل عن الزيادة هنا إلى النقص، مع دواع أخرى من التناسب اللفظي والمعنوي ليس هذا موضع شرحها.

د - العدول عن التشابه للتناسب في المقدار :

التناسب في المقدار صورة من صور التناسب الصوتي عند القدماء، لأن المراد به التناسب في الطول والقصر بين فقرات الكلام المقترن بعضها ببعض ^(٢).

وهو من محسنات الكلام عندهم، لأن الأحسن في الكلام المنشور كما رأوا تساوي قرائنه، أو أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى ^(٣)، أي أن مدار الحسن على التناسب تساويًا كان أو تقاربًا.

ويمكن تحديد القرائن في القرآن الكريم بمعلمين؛ الأول مواضع الوقف المنصوص عليها، ونعني بها الرموز التي وضعت فوق الكلمات في المصاحف، وهي (٠، قلى، صلى، ج،) ^(٤)، ومع أنها تختلف في دلالتها على لزوم الوقف أو أولويته أو أولوية الوصل، أو استوائهما أو

(١) انظر: السابق: ١١٤.

(٢) انظر: ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة: ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) انظر: السابق: ١٩٣، والزركشي، البرهان: ١: ٧٧ - ٧٨.

(٤) انظر: نسخة القرآن الكريم المطبوعة بمؤسسة علوم القرآن الكريم، منار للنشر والتوزيع، انظر منها: علامات الوقف ومصطلحات الضبط: ٦١٢. وثمة نسخ أخرى اعتمدت فيها رموز مغايرة مثل .، ط، %، ز، ص انظر الصفحة الأولى من النسخة التي طبعتها المطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٣٨٢ هـ. وستعتمد رموز النسخة السابقة، وستستعين بنسخة الهاشمية إذا كان ثمة وقوف لم يُشر إليها في السابقة.

اختيار أحد الوقفين، فإن الحاصل أنها كلها رموز وقف، مما يسمح بعدها شيئاً واحداً. ويضاف إلى تلك المواضع الفواصل، لأن الوقف عليها سنة^(١).

ونسنتعين ببعض كتب الوقف، لأن ثمة مواضع ذكرت في هذه الكتب لم يشر إليها في المصاحف.

والمعلم الثاني الذي سنستعين به في تحديد القرائن هو الجمل - وبالمفردات عند الضرورة - وإن لم يتم بها المعنى؛ كجملة الشرط دون جوابه، والجملة المعطوف عليها دون المعطوفة، ونحو ذلك من الجمل التي تحتاج إلى ما يتممها في المعنى أو الإعراب، لأن الوقف عليها، أو على نظائرها من المفردات، دون ذلك المتمم - وإن كان قبيحاً بحسب تقسيمات القراء واصطلاحهم - جائز، لجواز الوقف على كل كلمة عند الضرورة^(٢). وسنضطر إلى الاستعانة بذلك لا على أنه وقف، بل على أنه تقسيم تفرضه طريقة البحث التوضيحية، ولذلك لن نستعين بهذا المعلم إلا إذا خلا المتشابهان من وقف منصوص عليه. على أنه سيتبين في التطبيق أن الاستعانة بهذا المعلم صالحة كل الصلاحية، وأنها أدل على المراد وأكثر اطراداً وأدق في الاستنتاج، ولكن لا بد من الاتباع بالاستعانة بالوقف، لأن الأداء عليه.

والمهم أنه بالوقف - وهو من الفنون الجليلة عند القراء^(٣) - الذي روعي في أنواعه تعلق الكلام ببعضه في اللفظ والمعنى، وبالتقسيم؛ تنقسم الآيات إلى أقسام قد تأتي متناسبة في المقدار، شبيهة بالقرائن المتقاربة في الوزن^(٤).

ولتناسب المقدار بين القرائن في القرآن الكريم قيمة إيقاعية؛ حاولت بعض الدراسات التنبيه عليها وإبرازها في تطبيقات على سور مفردة^(٥)، «واستفاد بعض الخطاطين من التوازن

(١) انظر: ابن الجزري، النشر: ١: ٢٢٦، والأنصاري، زكريا، المقصد لتلخيص ما في المرشد: ٥.

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨، وقارن بالنشر لابن الجزري: ١: ٢٣٠ - ٢٣١.

(٣) انظر: الزركشي، البرهان: ١: ٣٤٢ وما بعدها.

(٤) انظر: أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٣٣٩.

(٥) انظر ما أشار إليه أحمد أبو زيد في كتابه التناسب البياني في القرآن: ٣٤٢ - ٣٤٣، وانظر كذلك الحساوي، محمد، الفاصلة في القرآن: ٢١٤ - ٢١٥.

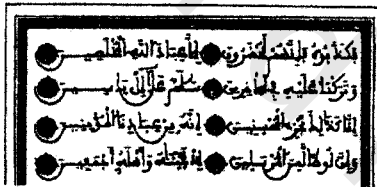
أو تناسب المقدار بين بعض الآيات، أو بين أقسامها التي تشبه القرائن المتقاربة في الوزن، استفاد من ذلك في تجميل خط المصحف، فكتب الآيات المتوازنة أو المتقاربة في الوزن بطريقة تبدو معها وكأنها مقطوعات من الكلام الموزون القائم على التعادل وتساوي الأجزاء»^(١).

وهذه نماذج مصورة من المصحف المذكور توضح ذلك التناسب في المقدار^(٢):

نموذج ١: (سورة الشعراء)



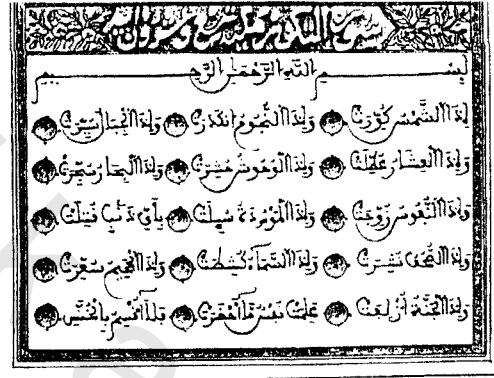
نموذج 2 : (سورة الصافات)



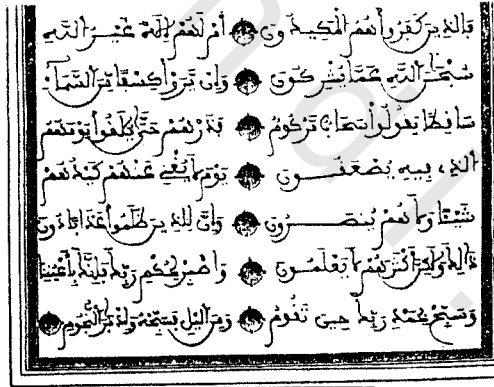
يتمثل تناسب المقدار في كَوْنُ الآيات في النموذج الأول متوازنة بحيث سمحت للخطاط بكتابتها متعاطلة مع إضافة تحلية زخرفية. وفي النموذج الثاني يبدو التناسب بين الآيات مزجوجاً

- (١) أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٣٤٣.
- (٢) صورناها عن المرجع السابق: ٣٤٤ - ٣٤٥، وقد ذكر صاحب المرجع في الحاشية ٣٢ من الصفحة: ٣٤٣: أن المصحف المذكور برواية حفص، وأن الذي خطه وزينه الشيخ الحاج زهير ناس مملوك.

نموذج ٣ : (سورة التکویر)



نموذج 4 : (سورة الطور)



يبدو تناسب المقدار واضحاً في النموذجين: ففي النموذج الثالث
وضع الخطاط الآيات في تناسب مثلث وفي النموذج الرابع وضعها في تناسب مربع

وقد راعى القرآن الكريم في عدوله عن التشابه ذلك التناسب في المقدار، ليكون كل من المتشابهين مناسباً لما اقترن به. وهذا أوان الشروع في بيان ذلك بالتطبيق.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة ذلك التناسب قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] وفي سورة لقمان ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾^(١) [لقمان: ٢١] فعدل القرآن عن ﴿أَلْفَيْنَا﴾ إلى ﴿وَجَدْنَا﴾.

قال أبو جعفر بن الزبير «ألفى أكثر حروفاً من وجد، فناسب لفظ ألفى طول آية البقرة، وناسب لفظ وجد إيجاز آية لقمان، مراعاة لفظية ملحوظة في البلاغة»^(٢) وحقيقة ذلك مناسبة مقدار القرينة في كل من المتشابهين، لأن مقدار المتشابهين واحد، وإنما الاختلاف في مقدار قرينتهما، أما آية البقرة فهي :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]

وأما آية لقمان فهي :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]

فالوقف في المتشابهين على ﴿ءَابَاءَنَا﴾، والقرينة في البقرة ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ﴾ إلى ﴿يَهْتَدُونَ﴾، وفي لقمان ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ﴾ إلى ﴿السَّعِيرِ﴾، وهي في البقرة أطول منها في لقمان، لأنها في البقرة مركبة من واحد وعشرين مقطعاً^(٣)، وفي لقمان من ثمانية عشر،

(١) تقدم في العدول بالمبدلات اللفظية المتقاربة.

(٢) ملاك التأويل: ١: ١٠٤.

(٣) المقطع كما عرفه د. القضماني: "أصغر وحدة كلامية منظومة لا تحمل معنى بذاتها، لكنها تجسد السمات النظامية الصوتية في الكلام وتحمل نبر الكلمة. وهو يتألف من اجتماع صامت وصائت ضمن ترتيب معين يحدد طبيعة المقطع ونوعه" القضماني، د. رضوان، مدخل إلى اللسانيات: ٩٧. والمراد بالصامت الحرف الصحيح أو الصوت الساكن، وبالصائت حرف المد واللين - أي حرف العلة =

ومن هنا جاء طول آية البقرة الذي نبه عليه أبو جعفر، فالطول طول القرينة، فلما طالت جاء التعبير بـ ﴿أَلْفَيْنَا﴾ في قرينتها مناسباً؛ لأنه أكثر حروفاً من ﴿وَجَدْنَا﴾ كما عبر أبو جعفر، أو لأنه مؤلف من ثلاثة مقاطع طويلة ^(١) «أَل - فَيَ - نَا» و﴿وَجَدْنَا﴾ مؤلف من مقطع قصير واثنين طويلين «و - جَد - نَا». ولما كانت القرينة في آية لقمان أقصر استدعت مناسبتها العدول عن التشابه إلى التعبير بـ ﴿وَجَدْنَا﴾ لأنه أقصر.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي الأعراف ويونس ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣، ويونس: ٧٥] وفي سورة المؤمنين ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ ^(٢) [المؤمنون: ٤٦] فعدل القرآن عن التعبير بـ ﴿مجرمين﴾ إلى التعبير بـ ﴿عَالِينَ﴾.

أما آيتا الأعراف ويونس ففيهما وقف على ما قبل ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾، وقد طالت القرينة من بداية الآية إلى ذلك الوقف فيهما، فجاء التعبير بـ ﴿مجرمين﴾ المؤلف من ثلاثة مقاطع مناسباً لذلك، لأنه أطول من ﴿عَالِينَ﴾ المؤلف من مقطعين، قال تعالى في آية الأعراف:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْنَ مَفْصَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]

= والحركة أيضاً. وأنواع المقاطع في العربية خمسة كما حددها د. إبراهيم أنيس؛ اثنان مفتوحان؛ أي ينتهيان بصائت، وهما:

١ - صوت ساكن وصوت لين قصير، نحو الضاد مع الفتحة، أو الراء مع الفتحة، أو الباء مع الفتحة من ضَرَبَ.

٢ - صوت ساكن وصوت لين طويل، نحو الميم والألف ما.

وثلاثة مغلقة؛ أي تنتهي بصامت، وهي:

٣ - صوت ساكن وصوت لين قصير وصوت ساكن، نحو اللام والفتحة والميم في لم.

٤ - صوت ساكن وصوت لين طويل وصوت ساكن؛ نحو القاف والألف واللام الساكنة في قال.

٥ - صوت ساكن وصوت لين قصير وصوتان ساكنان، نحو التاء والفتحة والذال المشددة في تَدَّ من مُمَتَّد. انظر أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ١٦٣.

(١) المقطع الطويل هو كل مقطع مفتوح مؤلف من صوت ساكن وصوت لين طويل، نحو ما، وكذلك كل مقطع مغلق. أما المقطع القصير فهو المؤلف من صوت ساكن وصوت لين قصير، نحو و. انظر:

القضمانى، د. رضوان، مدخل إلى اللسانيات: ٩٨.

(٢) انظر: العقد الجميل: ٨٣.

فالوقف على ﴿مُفَصَّلَتٍ﴾^(١) .

وقال سبحانه في آية يونس :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتْلِيَانَا فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

[يونس : ٧٥]

فالوقف على ﴿يَتْلِيَانَا﴾ جائز^(٢) .

وأما آية المؤمنين فالمقترن بها قصير ، ولا وقف عليه ، قال تعالى :

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون : ٤٦]

فلما قصر هذا المقترن استدعت مناسبتها في المقدار العدول عن ﴿مُجْرِمِينَ﴾ إلى ﴿عَالِينَ﴾ لأنه أقصر .

على أنه إذا عُدت آية المؤمنين كلها قرينة واحدة فإن العدول فيها إلى ﴿عَالِينَ﴾ مناسب لمقدار الآيات التي اكتنفتها والتي هي قرائن لها ، قال تعالى :

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٧﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِشَرٍّ مِنْهُمْ مَثَلُنا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الآيات [المؤمنون : ٤٥ - ٤٧]

وذلك بخلاف آيتي الأعراف ويونس ، إذ كانت الآيات التي اقترنت بهما أطول .

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام : ٥] وفي سورة الشعراء ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٣) [الشعراء : ٦] فعدل القرآن عن التعبير بسوف إلى التعبير بالسين .

ووجه ذلك كما ذكر الخطيب الإسكافي وغيره أن ما في الأنعام مقترن باستيفاء اللفظ ، لأن الآية :

(١) انظر الرمز فوق الكلمة في نسخة المصحف المطبوعة في المطبعة الهاشمية سنة ١٣٨٢ هـ ، وانظر أيضاً : الأنصاري ، زكريا ، المقصد : ٣٨ .

(٢) انظر : نسخة المصحف المطبوعة في المطبعة الهاشمية .

(٣) انظر : درة التنزيل : ١٠٧ ، والبرهان : ١٦٤ ، وملاك التأويل : ١ : ٢٨٠ ، وكشف المعاني : ١٥٤ ، والعقد الجميل : ٦٠ .

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]

وما في الشعراء مقترن باختصار اللفظ، لأن الآية:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء: ٦]

فعُدل إلى التعبير بالسين هنا لمناسبة الاختصار^(١)، هذا ما نبهوا عليه. وهو يفيد أن القرينة في آية الأنعام طويلة؛ فناسبها التعبير بـ ﴿فَسَوْفَ﴾ لطوله، وأنه لما قصرت في آية الشعراء استدعى التناسب في المقدار العدول إلى التعبير بالسين لقصره، وذلك لأن ثمة وقفاً على ﴿كَذَّبُوا﴾ في آية الشعراء نصت عليه بعض كتب هذا الفن^(٢)، وإن لم يُشر إليه في نسختي المصحف اللتين اعتمدناهما.

على أن التناسب حاصل ولو لم يُراع ذلك الوقف، لأن وصل ﴿كَذَّبُوا﴾ بـ ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ يجعل الآية كلها بمنزلة قرينة واحدة للآية التالية، وهما متناسبتان في مقدارهما، قال تعالى:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء: ٦ - ٧] كَرِيمٌ

ولولا العدول لما تحققت هذه المناسبة، لأنه لو عبر هنا بـ ﴿فَسَوْفَ﴾ لكانت مقاطع الآية أزيد من مقاطع قرينتها، على حين هي بالعدول مساوية لمقاطع تلك القرينة؛ فكل منهما مؤلف من اثنين وعشرين مقطعاً.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة مريم ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ [مريم: ٨١] وفي سورة الفرقان ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ [الفرقان: ٣] وفي سورة يس كما في سورة مريم ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾^(٣) [يس: ٧٤] والعدول بالإجمال عن الإظهار إلى الإضمار.

والتعبير بالإظهار في آيتي مريم ويس مناسب أتم مناسبة، لأنه به تساوى صدر القرينتين في عدد المقاطع، قال تعالى في سورة مريم:

- (١) انظر: درة التنزيل: ١٠٨، والبرهان: ١٦٤، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٧٥، والسيوطي، قطف الأذهار: ٢: ٨٥٠، والألوسي، روح المعاني: ٧: ٩٣.
- (٢) انظر: الأنصاري، زكريا، المقصد: ٦٣.
- (٣) انظر: درة التنزيل: ٣٩١، والبرهان: ٢٨١ و ٣١٣، وملاك التأويل: ٢: ٧٤٣، وكشف المعاني: ٣٠٥.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨١﴾ ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٨٢﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]

فليس في الآيتين وقف إلا على ﴿كَلَّا﴾، وهو جائز، فيمكن الوصل، فإذا روعي هذا الوصل فلا يبقى وقف في الآيتين إلا على الفاصلة، وبهذا تكون الآيتان قرينتين تساوي صدرهما ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً﴾ مع ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ فكل منهما مؤلف من ثلاثة عشر مقطعاً.

وكذلك آية يس فصدرها مساوٍ لصدر الآية السابقة لها، قال تعالى:

﴿وَهُمْ فِيهَا مَنَعٌ وَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ [يس: ٧٣ - ٧٤]

فثمة وقف على ﴿وَمَشَارِبٌ﴾، إذا روعي كانت مقاطع كل من الصدين ثلاثة عشر كالعدد في آيتي مريم السابقتين.

أما العدول إلى التعبير بالإضمار في سورة الفرقان فمناسب أتم مناسبة أيضاً، لأنه به تساوت القرينتان في عدد المقاطع، قال تعالى:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]

فثمة وقف على ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كما نصت كتب الوقف^(١)، إذا روعي ونون ﴿إِلَهَةً﴾ - لأنه موصول لا وقف عليه - كانت مقاطع القرينتين متساوية؛ فكل منهما مؤلف من اثني عشر مقطعاً، ولولا العدول لفات التناسب، لأنه حينئذ تكون مقاطع القرينة الأولى ثلاثة عشر، ومقاطع الثانية اثني عشر. فسبحان منزل هذا الكتاب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١] وفي سورة فاطر ﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ [فاطر: ٤٥] فعدل القرآن عن الإضمار في ﴿عَلَيْهَا﴾ إلى الإظهار في ﴿عَلَىٰ﴾

(١) انظر: الأنصاري، زكريا، المقصد: ٦٢.

ظَهَرَهَا. وقد بينا وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتجنب ثقل المجاورة الصوتية، وثمة وجه صوتي آخر؛ هذا موضع بيانه.

قال أبو جعفر بن الزبير: «وقيل هنا ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥] والضمير للأرض فسرّه السياق الأول، فقليل ﴿عَلَى ظَهَرِهَا﴾ ليناسب في طول تركيبه قوله ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ [فاطر: ٤٥] كما ناسب قوله ﴿عَلَيْهَا﴾ [النحل: ٦١] في الآية الأولى قوله ﴿يُظْلِمُهُمْ﴾ [النحل: ٦١] في قلة حروفه تناسب التوازن والتناظر والتقابل^(١) وبهذا التناسب في التركيب نوسب بين كل من المتشابهين وقرينته، فلما قصرت في النحل بسبب قصر ﴿يُظْلِمُهُمْ﴾ الذي هو من أربعة مقاطع ناسب التعبير بـ ﴿عَلَيْهَا﴾، ولما طالت في فاطر بسبب طول ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ الذي هو من خمسة مقاطع ناسبها العدول إلى التعبير بالأطول ﴿عَلَى ظَهَرِهَا﴾.

وجدير بالذكر أنه ليس ثمة وقف على ﴿يُظْلِمُهُمْ﴾ ولا على ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾، وإنما هو تقسيم قسمناه بحسب الجمل كما أشرنا في مقدمة هذا اللون من التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ﴾ الآية [الأنفال: ١٣] وفي سورة الحشر ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ﴾ الآية [الحشر: ٤] فعدل القرآن عن الفك إلى الإدغام ﴿يُشَاقِ﴾ في الحشر. وقد سبق توجيه ذلك في مراعاة العدول لمشكلة الصوت للمعنى، وقد راعى العدول أوجهاً صوتية أخرى، منها مناسبة القرينة في المقدار.

وبيان ذلك أن الفعل في آية الأنفال اقترن بمفعول ومعطوف، وهو في:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]

ثم جاء الجواب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، فطالت قرينة فعل الشرط بالعطف، فناسبه طول الفعل بفك الإدغام ليكون الحرفان موازينين للكلمتين المتعاطفتين، لأن العطف كما ذكر أبو جعفر بن الزبير يناسب الفك^(٢).

(١) ملاك التأويل: ٢: ٦٠٧.

(٢) انظر: السابق: ١: ٢١٥.

ولم تطل القرينة في آية الحشر، لأنه ليس ثم عطف، وإنما جاء الجواب عقب المفعول في:

﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢]

فاقتضت مناسبة القرينة في القصر العدول إلى الإدغام الذي هو أقصر من الفك؛ من حيث كون القاف منطوقة مرة واحدة، فهي موازنة للمفعول الذي هو كلمة واحدة غير معطوفة.

وهذا يكاد يكون مطرداً في القرآن، وسنستدل على ذلك بمثال آخر؛ قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقوله في سورة المائدة ﴿مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾^(١) [المائدة: ٥٤] فعدل عن الفك في آية البقرة إلى الإدغام في آية المائدة.

ففي البقرة طالت قرينة جملة الشرط بأن عطفت عليها جملة أخرى قبل الجواب، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧] فناسب طول القرينة طول الفعل بالفك.

وفي آية المائدة قصرت القرينة، فلم يعطف على جملة الشرط شيء، قال تعالى:

﴿مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]

فجاء الجواب ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي﴾ عقب جملة الشرط، فكان المناسب لقصر القرينة العدول إلى إدغام الفعل الذي هو أقصر من فكه.

وجدير بالذكر أن آية المائدة قرئت بالفك كما قرئت بالإدغام، ولم تقرأ آية البقرة إلا بالفك^(٢)، بيد أن هذا لا يعكر على ما ذكرناه، ولا سيما أن له أدلة أخرى ليس هذا موضع ذكرها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] وفي سورة النمل ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٣) [النمل: ٧٠] فعبر القرآن أولاً بـ ﴿تَكُنْ﴾ بنقص النون، وعدل عن ذلك ثانياً إلى التعبير بالفعل ﴿تَكُنْ﴾ بلا نقص.

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٧٤.

(٢) انظر: ابن الجزري، النشر: ٢: ٢٥٥.

(٣) انظر: البرهان: ٢٤٨، والعقد الجميل: ١١٣.

أما التعبير بنقص النون في النحل فمناسب لقصر القرائن، قال تعالى :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٦ - ١٢٨]

وأما العدول إلى التعبير بالفعل التام في النمل فناسب به طول القرائن، قال تعالى :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٩٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٢٠٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل : ٦٩ - ٧٣]

وتتضح مناسبة ذلك أكثر إذا روعيت وقوف أخرى في آية النحل نصت عليها كتب الوقف، ولم يرمز إليها في نسختي المصحف المعتمدتين، وهي على ﴿أَصْبِرْ﴾، وعلى ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾^(١)، وبذلك تكون القرائن أقصر في الآية نفسها، وهي :

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل : ١٢٧]
فالتعبير بـ ﴿تَكُ﴾ هنا أنسب لقصر هذه القرائن، والتعبير بـ ﴿تَكُنْ﴾ في النمل أنسب لطول القرائن، وبالعدول روعي ذلك أتم مراعاة.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة سبأ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد : ٢] وفي سورة الحديد ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد : ٤] فالعدول عن التعقيب بـ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إلى التعقيب بـ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.

أما تعقيب آية سبأ بما عُقبت به فلتناسب الموازنة مع تعقيب الآية السابقة لها، قال تعالى :

(١) انظر : الأنصاري، زكريا، المقصد : ٥٢.

(٢) انظر : العقد الجميل : ١٣٣.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(١)
 يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿
 [سبأ: ١ - ٢]

وعُدل إلى التعقيب بـ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ لمناسبة مقدار القرائن التي تلتها، قال تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢) لَمْ تُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ [الحديد: ٤ - ٥]

فالمقدار يكاد يكون واحداً هنا، لأن مقاطع ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أحد عشر، وكذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ومقاطع ﴿لَمْ تُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عشرة، وكذلك ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾. فلو عقت آية الحديد بمثل ما عقت به مشابقتها آية سبأ لما حصل هذا التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥] وفي سورة النور ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ: واللّه بكل شيء عليم﴾^(١) [النور: ٣٥] فعُدل عن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ﴾.

أما آية إبراهيم فليس فيها وقف على ﴿لِلنَّاسِ﴾، وإنما هو موصول بتعقيبها بـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وبالموصل تتضح مناسبة هذا التعقيب، لأنه إذ ذاك يكون قوله ﴿وَيَضْرِبُ﴾ إلى ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ مناسباً في طوله للقرينة التي تقدمته في الآية، قال تعالى:

﴿تَوَفَّىٰ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ إِذْ كَانَ لِزَيْنِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ أَخَاهُ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]

وأما آية النور فناسب العدول إلى تعقيبها بـ ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ﴾ طول قوله فيما سبق ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وقوله بعد ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾، لأن ثمة وقفاً على ﴿يَشَاءُ﴾ و﴿لِلنَّاسِ﴾، قال تعالى:

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ﴾ [النور: ٣٥]

(١) انظر: السابق: ١٠٥.

ولم يكن هذا التناسب ليحصل لو جاء التعقيب هنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كما كان في آية إبراهيم، أي أنه لولا العدول لفات التناسب.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة التناسب في المقدار قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١] وفي سورة الحج ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾^(١) [الحج: ٧] فعُدل عن نقص «آتية» إلى زيادته.

أما النقص فمناسب لقصر القرينة المتأخرة في قوله تعالى :

﴿أَنْتَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١]

وأما آية الحج فطالت فيها القرينة المتأخرة، فاستدعت مناسبتها في الطول زيادة ﴿آتِيَةٌ﴾، قال تعالى :

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]

ولولا هذا العدول لما حصل التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المائدة ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُمِينُ﴾ [المائدة: ٩٢] وفي سورة التغابن ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُمِينُ﴾^(٢) [التغابن: ١٢] فعُدل عن زيادة ﴿فَأَعْلَمُوا﴾ إلى نقصه.

ففي آية المائدة كانت القرينة طويلة، فأطيل الكلام بالزيادة ليناسبها في الطول، قال تعالى :

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُمِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]

وفي آية التغابن جاءت القرينة كما في المائدة إلا أنه نقص منها ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ فكانت أقصر، فاقتضت مناسبتها في القصر العدول إلى نقص ﴿فَأَعْلَمُوا﴾، قال تعالى :

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُمِينُ﴾ [التغابن: ١٢]

(١) انظر: السابق: ١١٦.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢٧٤، والعقد الجميل: ٥٨.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ﴾ الآية [الإسراء: ٩٤] وفي سورة الكهف ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ - وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ - إِلَّا أَنْ﴾^(١) الآية [الكهف: ٥٥] فعدل عن نقص ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ إلى زيادته.

ومناسبة ذلك قصر المقترن بآية الإسراء، قال تعالى :

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]

فليس ها هنا وقف إلا على الفاصلة، بيد أن ما جاء بعد ﴿الهُدَىٰ﴾ يكاد يعادل ما جاء قبله في عدد المقاطع، فهذه مناسبة واضحة لم تكن لتحصل لولا نقص ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾. وفي آية الكهف طالت القرينة، قال تعالى :

﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]

فاستدعت مناسبة طول القرينة هنا - وليس عليها وقف - العدول إلى زيادة ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾، فتساوت القرينتان - أو القسمان؛ لأنه ليس ثمة وقف - في عدد المقاطع؛ إذ كل واحدة منهما مؤلفة من ستة وعشرين مقطعاً، ولولا هذا العدول لفات التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠] وفي سورة المزمل ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠] فعدل إلى هذه الزيادة في المزمل.

ومناسبة ذلك قصر القرينة في آية البقرة وطولها في المزمل، قال تعالى في آية البقرة :

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]

فكان النقص هنا مطلوباً لتناسب القرينتان في القصر.

وطالت القرينة في المزمل بما زيد فيها على آية البقرة، قال تعالى :

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)

[المزمل: ٢٠]

(١) تقدم في العدول بزوائد ونواقص الفعل.

(٢) انظر: العقد الجميل: ١٩.

فلما زيد هنا ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا﴾ وكان الوقف على ﴿حُسْنًا﴾ لا على ﴿الرَّكُوءَ﴾ كما كان في البقرة، طالت القرينة، فناسب طولها العدول إلى زيادة ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾، ولم يكن غير ذلك ليناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سور يونس وهود وفصلت ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩، وهود: ١١٠، وفصلت: ٤٥] وفي سورة الشورى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾^(١) [الشورى: ١٤] فزيد ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ في الشورى عدولاً عن نقصه من مشابهتها.

أما النقص من المشابهات الثلاث فاستدعاه قصر قرائنها، قال تعالى في آية يونس: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩] فليس ثمة وقف على ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في هذه الآية، وإنما هو موصول بـ ﴿فِيمَا﴾، وقوله ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قصير. على أنه إذا لم يعد هذا قرينة، فإن القرينة المتقدمة على ما ذكرناه قصيرة؛ وهي ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ الآية [يونس: ١٩]

وقال سبحانه في آية هود:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]

وكذلك القرينة في آية فصلت، قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥]

وأما آية الشورى فجاءت القرينة فيها طويلة، فاستدعت مناسبتها في الطول العدول إلى

زيادة ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ

بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]

ولولا هذا العدول لاختل التناسب كما هو واضح.

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٢٠، والبرهان: ٣٢٨، وملاك التأويل: ٢: ٨٤٤، والعقد الجميل: ٩٢ - ٩٣.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وفي سورة الأنفال ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾^(١) [الأنفال: ١٠] فعُدل عن زيادة ﴿لَكُمْ﴾ إلى نقصه.

أما الزيادة في آل عمران فواقعة موقعها، لأنه بها تناسب المشابه وما اقترن به في الطول، قال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وأما آية الأنفال فجاءت القرينة فيها قصيرة، فكان المناسب لذلك أن يُعَدل إلى نقص ﴿لَكُمْ﴾، قال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]

فثمة وقف هنا على لفظ ﴿اللَّهُ﴾، وهو موصول في آل عمران، مما جعل القرينة هنا أقصر، فناسبها العدول إلى النقص، كما كانت المناسبة متحققة بالزيادة في آل عمران.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠] وفي سورة الحج ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾^(٢) [الحج: ٥] فعُدل عن نقص ﴿مِنْ﴾ إلى زيادته في الحج. وقد سبق إبداء أكثر من وجه مناسب لذلك؛ في مراعاة العدول للمشاكل اللفظية، وفي مراعاته للمناسبة المعنوية. وهذا موضع إبداء وجه آخر لذلك العدول؛ يتعلق بالتناسب في المقدار.

أما ما في النحل فاكتنفته قرينتان قصيرتان، فكان نقص ﴿مِنْ﴾ منه مطلوباً ليتناسب وقرينتيه في القصر، قال تعالى:

(١) تقدم في العدول بزوائد ونواقص حروف الجر.

(٢) تقدم في العدول بزوائد ونواقص حروف الجر.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤَوِّفُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

[النحل: ٧٠]

وكذلك جاءت الآية التي بعدها مقسمة ثلاثة أقسام بحسب الوقف، قصير فمتوسط

فقصير، قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كُفِّرُوا بِرَّادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفْنِعْمةً اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]

فتأكدت مناسبة نقص ﴿مِنْ﴾ من هذين المنظورين.

وأما المشابهة في سورة الحج فجاء مكتنفاً بقرائن طويلة، فاقتضت مناسبتها لها في الطول

تطويله بالعدول إلى زيادة ﴿مِنْ﴾، قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ

ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَجْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ

نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا

يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ

رَوْحٍ بَهِيحٍ﴾ [الحج: ٥]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في آيتين من سورة الزمر ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَوهَا﴾ [الزمر: ٧١ و ٧٣]

وفي سورة فصلت ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَوهَا﴾^(١) [فصلت: ٢٠] فعُدل عن نقص ﴿مَا﴾ إلى زيادته.

أما ما في الزمر فمقترون بجملته قصيرة؛ وهي ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ في الآيتين، قال تعالى

في الأولى:

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]

وقال في الثانية:

(١) تقدم في العدول بزوائد ونواقص حروف التأكيد.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]

وليس ثمة وقف على ﴿جَاءَهَا﴾ في الآيتين، وإنما هو تقسيم توضيحي، فلما كانت القرينة التي هي جملة الجواب قصيرة، كان الأنسب أن تأتي جملة الشرط كذلك، فجاء نقص ﴿مَا﴾ منها مناسباً أتم مناسبة.

وأما ما في فصلت فطالت قرينته التي هي جملة الجواب، قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]

فلما طالت هذه القرينة، كان الأنسب أن تأتي جملة الشرط طويلة، فروعى ذلك بالعدول إلى زيادة ﴿مَا﴾.

وصفوة القول فيما تقدم أن القرآن الكريم يعدل عن التشابه مراعاة لصور متنوعة من التناسب الصوتي، فتارة يكون عدوله مراعاة للمشاكلة الصوتية؛ مشاكلة الصوت للصوت، ومشاكلة الصوت للمعنى، وتارة يكون مراعاة لتجنب ثقل المجاورة الصوتية، وثالثة يكون مراعاة لتناسب الموازنة، وأخرى مراعاة للتناسب في المقدار، وقد تُراعى به أكثر من صورة في المثال الواحد، بل ربما روعيت فيه كلها. ومهما يكن من أمر، فإن كل مثال مما سبق يبين أن العدول عن التشابه قُصد به تحقيق التناسب الصوتي من وجه ما، ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الأنسب له في حس السمع وذوق اللسان، مما يعني أنه لولا العدول لاختل التناسب.

ثالثاً : العدول عن التشابه لتناسب الفواصل :

الفاصلة هي «كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر»^(١) فهي ملتزمة في آياته كلها. وهي «ظاهرة أسلوبية قرآنية واضحة المعالم، بها انفرد القرآن [عن] النثر والشعر معاً، وهي من أبرز الخصائص التي جعلته نحواً جديداً من أنحاء البيان، وطريقاً فريداً من طرق التعبير»^(٢).

(١) الحسنائي، محمد، الفاصلة في القرآن: ٢٦، وانظر أيضاً: الزركشي، البرهان: ١: ٥٣. وقد نُقل في تعريفها خلاف؛ المختار منه والأصح ما ذكرناه، وهو اختيار صاحبَي الكتابين المذكورين. وانظر الخلاف فيهما.

(٢) أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٣٥١، وفي الأصل من، وصوابه ما ذكرناه.

ولها شأن كبير في بلاغة النظم القرآني وحلاوة إيقاعه، لأنها تؤدي وظيفة مزدوجة في نظم الآية؛ فهي من ناحية تتصل بالمعنى وتتممه، ومن ناحية أخرى تتصل بنظام الفواصل التي اكتنفتها وتنسقه، ولذلك حافظ القرآن عليها، واختارها بعناية، فمكّن لها في موضعها، وأقرها في نسقها^(١).

وفواصل القرآن كلها متناسبة، بل إن تناسبها هو أبرز عناصر التناسب الإيقاعي في النظم القرآني، وأشدّها وضوحاً^(٢). وقد نبه القدماء على ذلك التناسب، وأبرزوا أهميته في أنه قد يُخالف الأصل في التراكيب أو في الكلمات المفردة مراعاة له؛ فقد نُقل عن شمس الدين بن الصائغ [ت ٧٧٦ هـ] أنه قال في كتابه الذي سماه «إحكام الراي في أحكام الآي»^(٣) قال: «اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية، يُرتكب لها أمور من مخالفة الأصول»^(٤) وقال أيضاً: «وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة، فعثرت منها على نيف [على] الأربعين حكماً»^(٥) كتقديم المعمول على العامل؛ نحو ﴿أَهْوَلَاءِ إِنَّا كُنَّا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، وكزيادة حرف المد في قوله تعالى ﴿الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، و﴿الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦]، و﴿السَّيْلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وكصرف ما لا ينصرف في قوله تعالى ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا ۖ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾^(٦) [الإنسان: ١٥ - ١٦].

وقال الزركشي: «واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جداً، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيراً عظيماً، ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها في مواضع»^(٧).

(١) انظر: السابق: ٣٥٢.

(٢) انظر: السابق: ٣٤٩.

(٣) انظر: السيوطي، الإتقان: ٢: ٩٤٦.

(٤) السابق، والصفحة نفسها.

(٥) السابق، والصفحة نفسها، ووقع في الأصل عن، وصوابه ما ذكرنا.

(٦) انظر: السابق: ٢: ٩٤٦ - ٩٤٧، وذكر محقق الكتاب في الحاشية ٢ من الصفحة ٩٤٧ تعليقاً على

قواريراً: أن التنوين - أي الصرف - قراءة متواترة.

(٧) الزركشي، البرهان: ١: ٦٠.

وعلى تناسب الفواصل اعتمد العلماء في عد الآيات وضبط فواصلها فيما لم يرد فيه نص، فأجمعوا على سبيل المثال على ترك عد ﴿وَيَأْتِ يَخْرِيَةً﴾ [النساء: ١٣٣] من قوله ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ يَخْرِيَةً وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣] أجمعوا على ترك عده فاصلة مع أنه محتمل لذلك؛ لأنه محل وقف جائز، ولأنه منته بما انتهت به معظم فواصل القرآن: النون المسبوقة بواو أو ياء، فأجمعوا على ترك عده فاصلة لعدم مناسبتها فواصل الآيات التي اكتتفتها؛ إذ هي ﴿وَكَيْلًا﴾ [النساء: ١٣٢] و﴿بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] ونحو ذلك مما هو أنسب لـ ﴿قَدِيرًا﴾. وثمة مواضع أخرى أجمعوا على ترك عدها فواصل لعدم المناسبة^(١).

وبتناسب الفواصل رجع مذهب الشافعي في أن قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] كله آية، رجع على مذهب أبي حنيفة في أن ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، و﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ آية، لأن فاصلة ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لا تشابه فاصلة الآيات المتقدمة ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، و﴿سَتَعِينَ﴾ [الفاتحة: ٥]، وما تقدم سوى ذلك، ورعاية التشابه في الفواصل لازمة^(٢).

والحاصل أن مراعاة التناسب في فواصل القرآن لازمة ومتأكدة، ولهذا يعدل القرآن عن التشابه، فيضع فاصلة كل من المتشابهين في نسقها الأنسب لها. بل إن تلك المراعاة أكد ما تكون في هذا التشابه، ولذلك كان أقوى ما استدلل به القائلون بأن القرآن يراعي الفواصل كما يراعي بلغاء العرب السجع هو من المتشابه اللفظ^(٣).

وسنتبع ذلك في صورتين، نتناول في الأولى مراعاة العدول لتناسب الفواصل في الروي؛ أي في الحرف الأخير من كلمة الفاصلة، والثانية في ما قبل الروي؛ لأن فواصل

(١) انظر: السابق: ١: ٩٩ وما بعدها، والسيوطي، الإتيان: ٢: ٩٤١ - ٩٤٢، وأبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٢) انظر: ابن أبي مريم، الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها: ١: ٢٢٦، والزرکشي، البرهان: ١: ٧٥.

(٣) انظر: الباقلاني، إعجاز القرآن: ١١٠ وما بعدها، وقارن بما قاله البقاعي في نظم الدرر: ١٢: ٣١٠.

القرآن إما أن تتناسب في الحرف الأخير أو في ما قبله، أو فيهما معاً؛ وهو كثير^(١)، بيد أن هذه الصورة الثالثة مقسمة على الأوليين، ولذلك سنكتفي بهما.

أ - العدول عن التشابه لتناسب الفواصل في الروي :

تناسب الفواصل في الروي إما أن يكون تناسب مماثلة، وإما أن يكون تناسب مقاربة؛ لأن فواصل القرآن كما ذكروا تنحصر في قسمين؛ قسم تتماثل حروفه في المقاطع، وآخر تتقارب حروفه ولا تتماثل^(٢). والمقصود بالحروف في المقاطع الحرف الأخير من كلمات الفاصلة كما تدل أمثلتهم^(٣)، أو الحرف الأخير وما قبله كما يدل عليه كلام بعضهم^(٤). وستتناول هنا مراعاة العدول لتناسب الفواصل في الحرف الأخير فقط كما ذكرنا قريباً، من غير تمييز بين تناسب المماثلة والمقاربة، لأنهما يتداخلان ويصعب الفصل بينهما في مواضع كثيرة.

أ - العدول بالمبدلات :

ومن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة تناسب الفواصل في حرف الروي قوله تعالى في سورة المؤمنين ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وفي سورة سبأ ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٥) [سبأ: ١١] فعُدل عن وصفه سبحانه بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ إلى ﴿بَصِيرٌ﴾.

(١) جدير بالذكر أن ثمة فواصل منفردة؛ وهي التي لا تناسب بين حروفها وحروف الفواصل التي اكتنفتها أو جاءت قبلها أو بعدها، وهي نادرة لا تتجاوز في القرآن كله ثلاثاً وعشرين فاصلة كما ذكر صاحب الفاصلة في القرآن: ١٧٣ في الحاشية ٢، وفي: ٣٥٢، ومن أمثلتها قوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح ١ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ٢ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ٣ النصر: ١ - ٣ فانفردت فاصلة الآية الأولى الفتح عما تلاها، إلا أنها لم تخل من تناسب الموازنة، فهي و نصر بوزن واحد. وكذلك كل فاصلة منفردة لا بد لها من مناسبة صوتية أو لفظية فضلاً عن المعنوية. وانظر ما ذكره صاحب الفاصلة في القرآن من مسوغات انفراد الفاصلة في: ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) انظر: الرمانى، النكت في إعجاز القرآن؛ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٩٨، والزركشي، البرهان: ١: ٧٢ حتى ٧.

(٣) انظر: المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة، والصفحات نفسها.

(٤) انظر: ابن أبي مريم، الكتاب الموضح: ١: ٢٢٦.

(٥) انظر: البرهان: ٢٧٦.

قال الكرمانى: «خص كل سورة بما وافق فواصل الآي [فيهما]»^(١) وذلك لأن الفواصل المكتتفة لآية المؤمنين منتهية بالنون؛ وهو حرف مقارب للميم؛ من حيث كان في كليهما غنة، وكانا مجهورين، ولذلك أبدلوا أحدهما من الآخر في مثل: عَيْمٌ وغَيْنٌ^(٢). فبهذا الوجه من التقارب حصل التناسب بين ﴿عَلِيمٌ﴾ وما اكتتفه من فواصل، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٣)

.....وَأَوْثَقْنَاهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ^(٤)

يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ^(٥)

.....وَأَنَا رَبُّكُمْ فَانْقُورُوا^(٦)

..... كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ^(٧) [المؤمنون: ٤٩-٥٢]

وأما العدول إلى التعبير بـ ﴿بَصِيرٌ﴾ في آية سبأ فنوسب به فاصلة الآيتين اللتين بعدها، لأن رويها الراء، قال تعالى:

﴿..... وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٨)

.....وَمَنْ يَرْغَبْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ^(٩)

.... اَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ^(١٠) [سبأ: ١١ - ١٣]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي الحجر والذاريات ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥، والذاريات: ١٥] وفي سورة الطور ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧] وفي سورة القمر ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ﴾^(١١) [القمر: ٥٤] فعُدل عن ﴿وَعُيُونٍ﴾ إلى ﴿وَنَعِيمٍ﴾ ثم إلى ﴿وَنَهْرٍ﴾.

ووجه ذلك مناسبة كل فاصلة من تلك لفواصل الآيات التي تلتها في حرف الروي؛ ففي

الحجر قوله تعالى:

(١) السابق، والصفحة نفسها، ووقع في الأصل فيهما بالثنية.

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ٩١.

(٣) انظر: العقد الجميل: ١٠٦ - ١٠٧.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾

أَدْخُلُوها يَسْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِينَ ﴿٤٧﴾﴾

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٨]

وفي الذاريات قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾

ءَاخِذِينَ مَّا ءَانَتْهُمْ رِئُومُهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨]

وعُدل إلى ﴿وَبَعِيرٍ﴾ في الطور لمناسبة فاصلة الآية التالية، لأن رويها الميم، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَبَعِيرٍ ﴿٧﴾﴾

فَكَهَنَ يَمَآ ءَانَتْهُمْ رِئُومُهُمْ وَوَقَنْتُهُمْ رِئُومُهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ١٧ - ١٨]

ثم عُدل في القمر إلى ﴿وَنَهْرٍ﴾ لمناسبة فاصلة الآية التالية؛ لأن رويها الراء، ولمناسبة فواصل السورة كلها أيضاً؛ لأن الروي في كلها راء، فيكفيها ذكر ما اكتنفها، وهو قوله تعالى:

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾﴾

إِنَّ اللَّتَفِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾﴾

فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٣ - ٥٥]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة لقمان ﴿فَأَبْتَنَّا فِيهَا مِّنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

[لقمان: ١٠] وفي سورة ق ﴿وَأَبْتَنَّا فِيهَا مِّنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٧] فالعدول عن

﴿كَرِيمٍ﴾ إلى ﴿بَهِيجٍ﴾.

(١) انظر: السابق: ١٠٦.

وقد جاء التعبير في لقمان مناسباً لفواصل الآيات التي اكتنفته، لأن رويها الميم أو النون؛ وهما متقاربان كما سبق، وهي:

- ﴿.....فَشَرُّهُ عَذَابُ الْيَمِّ ٧﴾
لَهُمْ جَنَّاتُ الْعِيمِ ٨﴾
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩﴾
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ١٠﴾
بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١١﴾ [لقمان: ٧ - ١١]

وقد تقدمت آية ق آيات؛ روي فواصلها الجيم، فكان العدول إلى ﴿بِهَيْج﴾ أنسب لذلك، قال تعالى:

- ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ٥﴾
 أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ٦﴾
 وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٧﴾ [ق: ٥ - ٧]
 ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة ق ﴿مَنْعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾ [ق: ٢٥] وفي سورة القلم ﴿مَنْعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ﴾^(١) [القلم: ١٢] فالعدول عن ﴿مُرِيبٍ﴾ إلى ﴿أَيْمٍ﴾.
 وقد جاء التعبير في ق مناسباً للفواصل التي اكتنفته؛ لأن رويها الدال؛ وهو مقارب للباء، لاشتراكهما في الجهر والشدة والقلقلة^(٢)، ومن هذه الفواصل:

- ﴿وَقَالَ فِرْعُونُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي ١٣﴾
 أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ١٤﴾
 مَنْعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ١٥﴾
 الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ١٦﴾
 قَالَ فِرْعُونُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ٢٧﴾ [ق: ٢٣ - ٢٧]

(١) انظر: السابق: ١٤٠.

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ٥٤.

أما آية القلم فاكتنفها آيات؛ روي فواصلها النون أو الميم، بل كل ما في السورة كذلك؛ وهما متقاربان كما سبق، فكان المناسب لذلك العدول إلى ﴿أَنِيعِ﴾، قال تعالى:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾

هَمَزٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ ﴿١١﴾

لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُنِيعٍ ﴿١٢﴾

عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴿الآيات [القلم: ١٠ - ١٤]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْثَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧] وفي سورتي النحل والقلم نحو ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْثَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥، والقلم: ٧] وفي سورة النجم التي هي متقدمة على القلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى﴾ ^(١) [النجم: ٣٠] والحاصل أنه عدل عن ﴿بِالْمُهْثَدِينَ﴾ إلى ﴿بِمَنْ أَهْتَدَى﴾ في النجم.

ووجه ذلك استدعاء التناسب في الروي بين الفاصلة في كل من هذه المتشابهات وبين

فواصل الآيات التي اكتنفتها، قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿..... إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْثَدِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

..... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴿الآيات [الأنعام: ١١٦-١١٩]

وقال سبحانه في سورة النحل:

﴿..... وَإِنَّكُمْ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿..... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

(١) انظر: العقد الجميل: ٧١.

..... وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٢﴾
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
 وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾
 وَلَا تَكُ فِي صَبَقِ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ [النحل: ١٢٢-١٢٨]

وقال سبحانه في سورة القلم :

﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ﴾

بِأَيِّكُمْ أَلْفَتُونَ ﴿٦﴾

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾

وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ [القلم: ٥ - ١٠]

فجاء التعبير في هذه المتشابهات بـ ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ مناسباً لروى الفواصل التي اكتفتها كما هو واضح.

أما العدول إلى ﴿بمن اهتدى﴾ في سورة النجم فاستدعته مناسبة روى الفواصل فيها، لأن معظم فواصل السورة منتهية بألف، فمما اكتنف آية العدول الآيات :

﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾

..... وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾

..... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْدَى ﴿٣٠﴾

..... وَيَجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾

..... هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ [النجم: ٢٨-٣٢]

ومن البين أنه لولا العدول لما تحقق التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

[النساء: ٣٦] وفي سورة لقمان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] وفي سورة

الحديد ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١) [الحديد: ٢٣] فُعدِلَ عن التعبير بـ ﴿مَنْ كَانَتْ﴾ إلى التعبير بـ ﴿كُلُّ﴾ في لقمان والحديد.

ووجه ذلك مناسبة روي الفواصل في كل من تلك السور؛ لأنه تقدم آية النساء آيتان فاصلتهما راء منصوبة، فروعيت مناسبتها بالتعبير بـ ﴿مَنْ كَانَتْ﴾ ليتنصب ﴿فَخُورًا﴾، والآيات:

﴿..... إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾..... [النساء: ٣٤ - ٣٦]

ثم إن معظم فواصل سورة النساء تنتهي بتنوين النصب، وهو يتقلب ألفاً في الوقف المراعى في الفواصل، وبذلك يكون التناسب من وجهي الراء المفتوحة، وتنوين النصب المنقلب ألفاً.

أما العدول إلى التعبير بـ ﴿كُلُّ﴾ في لقمان فلينجر ﴿فَخُورٌ﴾ ويناسب برائه غير المحركة في الوقف روي الفواصل التي اكتفتها، والتي هي راء غير محركة في الوقف أيضاً، والآيات:

﴿..... إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(١١)

﴿..... إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١٢)

﴿..... إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(١٣)

.... [النساء: ١٦ - ١٩]

وكذلك العدول في سورة الحديد هو لمناسبة روي فاصلة الآية المتقدمة:

﴿..... إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(١٤)

.... [الحديد: ٢٢ - ٢٣]

فالمناسبة بينة في المتشابهات الثلاث، والعدول حاصل في التركيب لا في كلمة الفاصلة كما في الأمثلة المتقدمة، ومن الواضح أنه لولا هذا العدول لما تحقق التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المائدة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩] وفي سورة الفتح ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(١) انظر: درة التنزيل: ٥٣، وملاك التأول: ١: ١٣٢، وكشف المعاني: ١٢٠، والعقد الجميل: ٥٠.

مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»^(١) [الفتح: ٢٩] فُعدل عن الجر باللام في ﴿لَهُمْ﴾ إلى الجر بـ من في ﴿مَنْهُمْ﴾.

والتعبير باللام يؤدي إلى ارتفاع ﴿عَظِيمًا﴾، وبمن يؤدي إلى انتصابه، والمستدعي للارتفاع والانتصاب المناسبة في روي الفواصل في السورتين، قال الكرماني: «رفع ما في هذه السورة موافقة لفواصل الآي، ونصب ما في الفتح موافقة للفواصل أيضاً»^(٢) لأن فواصل الآيات المكتنفة لآية المائة رويها نون أو ميم - وهما متقاربان - وهي:

﴿..... إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيرِ ۝١٠

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيرِ ۝١٢

..... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ [المائدة: ٨ - ١١]

وفواصل سورة الفتح كلها منتهية بتنوين نصب ينقلب ألفاً في الوقف، فكان المناسب هنا أن يُعدل إلى التعبير بـ ﴿مَنْهُمْ﴾ لينتصب ﴿عَظِيمًا﴾ فيكون على شاكلة فواصل السورة، فمن الفواصل القريبة من الآية:

﴿..... وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٦﴾

..... فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٣٧

..... وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٣٨

... وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الفتح: ٢٦-٢٩]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورتي التوبة والصف ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣، والصف: ٩] وفي سورة الفتح المتقدمة على الصف ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى

(١) انظر: درة التنزيل: ٨٩، والبرهان: ١٦٠، وملاك التأويل: ١: ٢٣٩، وكشف المعاني: ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) البرهان: ١٦٠.

الَّذِينَ كُفَّهِ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ [الفتح: ٢٨] فعدل عن التعقيب بـ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ إلى ﴿وَكُفَّ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب الموازنة الإفرادية، وثمة وجه صوتي آخر يتعلق بتناسب الفواصل في حرف الروي؛ هذا موضعه.

أما ما في التوبة والصف فمناسب لروي الفواصل التي تقدمته؛ وهو نون، وآيات التوبة هي:

﴿... حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

..... أَفْ يُؤْفَكُونَ (٣٠)

..... إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)

..... وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ [التوبة: ٢٩ - ٣٣]

وآيات الصف هي :

﴿..... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٣٤)

..... قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٣٥)

..... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٣٦)

..... وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٧)

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

[الصف: ٥ - ٩]

وأما آية الفتح فتقدمتها آية روي فاصلتها الباء المفتوحة، والباء أنسب للدال من النون، لقرب الباء من الدال كما تقدم في مثال سابق، فكان الأنسب هنا مراعاة هذا التقارب، ولذلك عدل إلى ﴿وَكُفَّ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، قال تعالى :

﴿... فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٣٨)

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُفَّ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٣٨﴾

[الفتح: ٢٧ - ٢٨]

ثم إن فواصل سورة الفتح كلها منتهية بألف منقلبة عن تنوين النصب، و﴿شَهِيدًا﴾ أنسب لذلك من فاصلة سورتي التوبة والصف ﴿الْمُشْرِكُونَ﴾، وبهذا يكون المقتضي للعدول وجهين من تناسب الفواصل، يؤكد أحدهما الآخر، تناسب يعم فواصل السورة كلها، وتناسب يخص فاصلة الآية المتقدمة.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣] وفي سورة فصلت ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] فعُدل عن التعقيب بـ ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ إلى التعقيب بـ ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب الموازنة الإفرادية، وثمة وجه آخر يتعلق بتناسب الفواصل في الروي؛ هذا موضع بيانه.

أما تعقيب آية الإسراء بما عقبته به فواقع موقعه الأنسب له؛ لأن فواصل السورة كلها منتهية بألف منقلبة عن تنوين النصب إلا فاصلة واحدة في أول السورة، فمما اكتنف الآية قوله تعالى:

﴿..... إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١)

..... وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢)

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٣)

..... فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٨٤) [الآيات [الإسراء:

[٨٤-٨١]

وأما العدول في آية فصلت فنوسب به روي فاصلة الآية التي تقدمتها؛ وهو الظاء، لأن بين الضاد والظاء تقارباً شديداً في النطق القديم، مما جعل وقعهما في الآذان متشابهاً آنذ كما ذكر بعض دارسي الأصوات المحدثين؛ واستأنس بتناسب الروي في الفاصلتين^(١)، قال تعالى:

﴿... وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٠) ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١) [فصلت: ٥٠-٥١]

ونختم أمثلة عدول المبدلات بمثال يبين أن مراعاة العدول لتناسب الفواصل شيء مؤكد بسبب إثارة العدول مع أن المعنى واحد في المتشابهات؛ وهو قوله تعالى في سورة يونس ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] وفي سورة الإسراء ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وفي سورة النمل ﴿فَمَنْ

(١) انظر: أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٥٥.

أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١﴾ [النمل: ٩٢] فَعُدل عن تعقيب آية يونس بـ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ إلى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ في الإسراء، ثم إلى ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ في النمل.

وقد نبه الخطيب الإسكافي على أن المعنى واحد، وأنه عُدل عن التشابه مراعاة لتناسب الفواصل، فقال مبتدئاً بآية يونس: «أما الآية الأولى فإنه لما قال فيها ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ﴾ [يونس: ١٠٨] أي منفعة اهتدائه له، وهي دوام النعمة والخلود في الجنة، واقتضى هذا في الضلال ضده فقال: ومن ضل فإنما ضرر ضلاله عليه، وهو دوام العقاب بأليم العذاب ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] وما يلزمي أن أقيكم ما لا تقونه أنفسكم كالوكيل الذي يلزمه حفظ وكل به مما يضره. وأما الآية التي في آخر سورة النمل فإنها عدل بها عند ذكر الضلال عما حُمِلت عليه في الآية التي في آخر سورة يونس لتحمل على الفواصل التي قبلها، وهي مختومة بالواو والنون أو الياء والنون، فقال تعالى ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] أي ممن يعلمكم ما يلزمكم أن تحذروه، ويخوفكم ما يجب عليكم أن تجتنبوه، فاشتمل هذا على معنى ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] لأن في قوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ تخويفاً وإنذاراً، وفيه إذا قال: إنما أنا ممن ينذر؛ أي لست ممن يكره على ما يحميكم من النار ويقيكم حر العقاب كالوكيل الذي يحامي على ما وُكل به أن يناله ضرر، مثل ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] فجاء على لفظ ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] لتكون الفاصلة مشاكلة للفواصل التي قبلها مع تأدية مثل المعنى الذي أدته الآية التي شابهتها»^(٢).

ولم يتعرض الخطيب الإسكافي لآية الإسراء، والكلام عليها كالكلام على مشابهيها، لأن قوله فيها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ هو بلفظه في آية يونس، وقد قال الخطيب فيه: إن فيه تخويفاً وإنذاراً. ثم قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] هو بمعنى ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨] وبمعنى ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] لأن حاصله أنه لا يحمل إنسان ذنب آخر، وأن بعث الرسول إنما هو للإنذار بالعذاب.

(١) انظر: درة التنزيل: ٢١٥ - ٢١٦، وملاك التأويل: ١: ٥٠٦، والعقد الجميل: ٩٦.

(٢) درة التنزيل: ٢١٦، وما وضعناه بين قوسين إنما هو في الأصل فإنما، وصوابه بلا فاء كما أثبتنا.

فالمعنى في المتشابهات الثلاث واحد، وإنما عُدل عن التشابه مراعاة لتناسب الفواصل كما ذكر الخطيب الإسكافي، فأية يونس جاءت بين آيتين فاصلة المتقدمة مختومة بالميم، وفاصلة المتأخرة مختومة بالنون، وبين الميم واللام والنون تقارب فهي «أكثر الأصوات الساكنة وضوحاً، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين»^(١) وإن كان التقارب بين اللام والنون أشد منه بين اللام والميم لتقارب مخرج اللام والنون^(٢). والحاصل أنه بالتقارب بين تلك الثلاث كان التناسب متحققاً في تعقيب الآية بما عقت به، قال تعالى:

﴿..... وَهُوَ الْعَفْوَُّ الرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾

.. فَمِنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝١٠٨

.. وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس: ١٠٧ - ١٠٩]

وأما العدول في آية الإسراء فجاء مناسباً لمعظم فواصل السورة؛ لأنها مختومة بألف منقلبة عن تنوين النصب، فمما اكتنف الآية قوله تعالى:

﴿... وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ۝١٣﴾

أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤

مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥

.... فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝١٦﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٦]

وأما العدول إلى تعقيب آية النمل بما عقت به فاستدعته مناسبة روي الفواصل التي اكتنفته؛ وهو النون، فمن ذلك المكتنف قوله تعالى:

﴿..... هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾

(١) أنيس، د. إبراهيم، الأصوات اللغوية: ٢٧.

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ٧٨.

..... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾

... فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾

..... وَمَا رُبُّكَ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [النمل: ٩٠-٩٣]

فلما كان الروي المكتنف للآية هنا نوناً لا لاماً ونوناً كما في يونس، كان العدول هنا إلى تعقيب مختوم بنون أنسب، ولو عقتب الآية هنا بما عقتب به آية يونس لحصل التناسب، ولكن الأكيد في المناسبة والأمكن في هذا الموضع هو النون، ولذلك كان العدول مطلوباً.

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة تناسب الفواصل في الروي قوله تعالى في سورة النساء ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢] وفي سورة الأحزاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾^(١) [الأحزاب: ٥١] فعدل إلى زيادة ﴿كَانَ﴾.

أما نقص ﴿كَانَ﴾ من آية النساء فليرتفع ﴿حَلِيمٌ﴾ ولتناسب ميمه المرفوعة أو الساكنة في الوقف ختم الفاصلتين اللتين بعده بالميم والنون المرفوعتين أو الساكنتين في الوقف أيضاً، قال تعالى :

﴿.... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٣﴾

.. وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾

... وَلَكُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٥﴾ [النساء: ١٢ - ١٤]

وأما العدول إلى زيادة ﴿كَانَ﴾ في آية الأحزاب فلينتصب ﴿حَلِيمًا﴾ ويناسب بنصبه الفواصل التي اكتنفتها؛ لأن رويها الميم أو الباء المنصوبة - وهما متقاربان لكونهما من مخرج واحد^(٢) - قال تعالى :

﴿..... وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَراً رَّحِيماً ﴿٥٠﴾

(١) انظر: ابن المنادي، متشابه القرآن العظيم: ٧٢ - ٧٣، والبرهان: ١٥٣ وقارن بـ ٣٠٧، ووقع في منته حكيماً سهواً، لأن المحقق ذكر في حاشيته حليماً .

(٢) انظر: نصر، محمد مكي، نهاية القول المفيد: ٣٧ و٤١، وانظر في تقاربهما أيضاً: ٩١.

..... وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

..... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾

..... إِنَّ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

..... فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ [الأحزاب: ٥٠ - ٥٤]

ثم إن ختم هذه الفواصل بالألف المنقلبة عن تنوين النصب في الوقف يستدعي العدول إلى زيادة ﴿كَانَ﴾ ليختم ﴿حَلِيمًا﴾ بالألف، ويناسب تلك الفواصل التي اكتفتها، ولعل هذا ما أراده الكرمانى بأن دخول كان هنا لمراعاة فواصل الآي^(١).

وقريب من المثال السابق قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] وفي سورة الشورى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾^(٢) [الشورى: ١٧] فعدل عن زيادة ﴿تَكُونُ﴾ إلى نقصه.

ذكر الكرمانى أن الزيادة في الأحزاب لمراعاة الفواصل^(٣)، وذلك لأن معظم فواصل السورة منتهية بألف منقلبة عن تنوين النصب، أو ألف ناشئة عن إشباع حركة الفتح، فزيد ﴿تَكُونُ﴾ لينتصب ﴿قَرِيبًا﴾ ويناسب بألفه المنقلبة عن تنوين النصب تلك الفواصل التي اكتفتها، قال تعالى:

﴿..... وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١١﴾

..... تَسْلِيمًا إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿١٢﴾

..... إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

..... لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٤﴾

..... يَقُولُونَ يَلَيَّتْنَا أطعنا الله وأطعنا الرسول ﴿١٥﴾

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿١٦﴾ [الأحزاب: ٦٢ - ٦٧].

(١) انظر: البرهان: ٣٠٧.

(٢) انظر: السابق: ٣٣٠.

(٣) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

أما آية الشورى فاكتنفتها آيتان؛ روي فاصلتهما الدال، وهو قريب من الباء كما تقدم في مثال سابق، وقد جاء مرفوعاً مرة ومجروراً أخرى، فاستدعى هذا العدول إلى نقص ﴿تَكُونُ﴾ ليرتفع ﴿قَرِيبٌ﴾ ويكون الوقف على الفواصل الثلاثة بصوت متقارب؛ وهو الباء المقلقلة لسكونها والدال المقلقلة لذلك أيضاً، قال تعالى:

﴿..... وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦)

﴿..... وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧)

.. أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ [الشورى: ١٦ - ١٨]

فالعدول هنا كما في المثال السابق حاصل في التركيب لا في لفظ الفاصلة، ولولاه لم يتحقق التناسب، مما يدل على أنه مقصود لذلك.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وفي سورة ق ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] فعُدل إلى زيادة ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول للمشاكلة اللفظية، وفي مراعاته لتناسب الموازنة الإفرادية، وثمة وجه آخر يتعلق بتناسب الفواصل في الروي؛ هذا موضعه.

أما آية الشعراء فاكتنفتها آيات؛ روي فواصلها الميم أو النون، فكان نقص ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مطلوباً هنا ليقع ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ فاصلة ويناسب رويها ما اكتنفه، فمن ذلك المكتنف قوله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨)

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٨٩)

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٩٠)

﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١)

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٢) [الشعراء: ٨٨ - ٩٢]

وأما آية ق فتقدمها آيات؛ روي فواصلها دال، فاستدعت مناسبتها العدول إلى زيادة ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ليكون فاصلةً رويها دال، قال تعالى:

﴿..... فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٩٣)

﴿..... وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٩٤)

..... وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾

..... وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

..... وَنَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾

..... وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ [ق: ٢٦ - ٣١]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحج ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] وفي سورة الزخرف ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] فعدل عن نقص «مبين» إلى زيادته. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب المطلع والختام. وثمة مناسبة صوتية تتعلق بروي الفواصل؛ هذا موضع بيانها.

أما آية الحج فتقدمها أربع آيات روي فواصلها الراء، ولكنها مفصولة عنها بآيتين روي فاصلتهما دال وميم، وتأخر عنها أيضاً ثلاث آيات روي فواصلها الراء، ولكنها مفصولة عنها بثلاث آيات روي فواصلها الميم أو النون، والحاصل أنها مكتنفة اكتنافاً غير مباشر بعدة آيات روي فواصلها الراء؛ فكان نقص «مبين» منها أنسب ليكون روي فاصلتها الراء، والآيات هي:

﴿إِنَّكَ إِلَهُ عَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ﴿١٠﴾

..... وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

..... وَأَنَّكَ إِلَهُ عَالِي الْكِبَرِ ﴿١٢﴾

..... إِنَّكَ إِلَهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

الْحَمِيدُ ﴿١٤﴾

..... رَحِيمٌ ﴿١٥﴾

..... إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٦﴾

..... مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾

..... يَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

..... تَخْتَلَفُونَ ﴿١٩﴾

..... إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾

..... الْأَرْضِ وَالْفُلْكِ تَجْرَى فِي ﴿٢١﴾

وَيُسِّ الْمَصِيرُ ﴿[الحج: ٦٠ - ٧٢]

وأما آية الزخرف فاحتفظها آيات روي فواصلها نون أو ميم، فكان الأنسب هنا العدول إلى زيادة ﴿مبين﴾ ليكون روي الفاصلة نوناً، ومن ذلك المكتنف قوله تعالى:

﴿..... وَمَا كُنَّا لَهُمْ مُقَرَّنِينَ ﴿١٣﴾

..... وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

..... إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

.... أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴿الزخرف: ١٣ - ١٦]

ثم إن ما يؤكد مناسبة العدول إلى تلك الزيادة هنا أن سورة الزخرف فواصلها كلها مختومة بميم أو نون إلا فاصلة واحدة فبلام.

٣ - العدول بالمقدم والمؤخر :

ومن أمثلة العدول بالمقدم والمؤخر لمراعاة ذلك التناسب قوله تعالى في سورتي يونس والأحقاف ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧، والأحقاف: ٨] وفي سورة سبأ ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾^(١) [سبأ: ٢] فتقدم ﴿الْغَفُورُ﴾ على ﴿الرَّحِيمُ﴾ في يونس والأحقاف، وكذلك كل ما في القرآن من ذكر «غفور» مع «رحيم» - وهو في أكثر من خمسين آية^(٢) - هو بتقديم صفة الغفران، ولم يُعدل عن ذلك إلا في سبأ.

أما آية يونس فتأخر فيها لفظ ﴿الرَّحِيمُ﴾ - وهو فاصلتها - ليكون الروي ميماً، فيناسب فواصل الآيات التي تقدمت الآية؛ لأن رويها النون، والنون والميم متقاربان، فمن تلك الآيات:

﴿..... وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

..... وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

..... فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾

(١) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٩٩.

(٢) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٥٠١ - ٥٠٢.

...وَأَنْتَ يُرِيدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

[يونس: ١٠٤ - ١٠٧]

وأما آية الأحقاف فاكتنفها آيات روي فواصلها النون، فجاء تأخير لفظ ﴿الرَّحِيمُ﴾ فيها مناسباً لذلك؛ لتقارب الميم والنون، فمن ذلك المكتنف قوله تعالى:

﴿... وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

... قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

... كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

... وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾

... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴿الآيات [الأحقاف: ٦ - ١٠]

وأما العدول إلى تأخير ﴿الْغَفُورُ﴾ في آية سبأ فليقع فاصلة وليناسب برائه روي فاصلة الآية المتقدمة؛ وهو الرءاء، قال تعالى:

﴿... وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾

... وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ [سبأ: ١ - ٢]

ولولا العدول لما تحقق التناسب كما هو واضح، ومما يزيد ذلك تأكيداً أن المطرد في القرآن تقديم «غفور» على «رحيم» وهو كثير، ولم يعدل عنه إلا في آية سبأ كما ذكرنا سابقاً. ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في كل آية ذكر فيها خلق السموات والأرض ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ﴾، ولم يعدل عن ذلك إلا في سورة طه في قوله ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ﴾^(١) [طه: ٤]. ذكر ابن جماعة أن ذلك لموافقة رؤوس الآي^(٢)، أي لمناسبة فواصل السورة؛ لأن معظم فواصلها منته باللف، فأخر ﴿وَالسَّمَوَاتِ﴾ ليوصف بكلمة الفاصلة ﴿الْعَلَى﴾ المنتهية باللف، قال تعالى:

﴿طه ﴿١﴾

مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾

(١) انظر: كشف المعاني: ٢٥٠، وتقديم السموات على الأرض وارد في أربع وعشرين آية في القرآن كله، انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٣٦٤ وما بعدها.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٢٥١.

إِلَّا نَذْكُرَهُ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢١﴾

تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْاَلَى ﴿٢٢﴾

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٢٣﴾ ﴿الآيات [طه : ١ - ٥]

وثمة مناسبة معنوية لذلك التأخير قرنهما ابن جماعة بالتناسب في الفواصل، يستحسن ذكرها هنا لأنها تدل على أن مراعاة العدول لتناسب الفواصل لا تنفصل عن مراعاته للتناسب في المعنى، قال ابن جماعة: «لما ذكر أن إنزال القرآن تذكرة لمن يخشى - وهم سكان الأرض - ناسب ذلك البداءة بالأرض التي أنزل القرآن تذكرة لأهلها»^(١).

ب - العدول عن التشابه لتناسب الفواصل فيما قبل الروي :

والمقصود بما قبل الروي ما يسمى عند أهل العروض بالردف والتأسيس والدخيل^(٢) ونحو ذلك، فإن للأحرف الملقبة بهذه الألقاب شأنًا كبيراً في تناسب الفواصل، بل ربما فاق الروي في الأهمية، وقد نبه على ذلك بعض المعاصرين، فقال: «أَوْ عَلَيْنَا جَنَاحَ فِي أَنْ نَزْعَمَ أَنَّ حُرُوفَ مَا قَبْلَ الرُّوْيِ سِوَاءَ اعْتَبَرْتَ رَدِيفَةً أَوْ دَخِيلَةً أَوْ تَوْجِيهًا رُبَّمَا كَانَتْ عِنْدَ تَحْلِيلِنَا لِحَرَكَةِ الْإِيْقَاعِ أَهَمَّ مِنْ حَرْفِ الرُّوْيِ ذَاتَهُ؟»^(٣).

وقال أيضاً: «أمر آخر أريد أن أجازف به؛ هو أن حرف الروي أو الحرف الذي علينا أن نتبين فيه لون الإيقاع بكلمة أدق ليس هو النون أو الميم؛ وهما حرفان سهلا المخرج قريباه فيهما غنة محببة، بل الياء والواو اللذان أتيا قبل الروي، فدور هذين الحرفين لا يقتصر على أن يكونا مجرد ردف للنون والميم وبقية حروف فواصل السورة، ردف يجب الالتزام به والتقيد كما هو الحال في الشعر، لم لا يكونان هما الحرفين اللذين بُني عليهما إيقاع الفاصلة؟ ولم لا يكون ما بعدهما إنما جاء لتلوينهما؟ نحن نرى ذلك، وهو أقرب إلى

(١) السابق، والصفحة نفسها.

(٢) الرُّدْف هو حرف مد أو لين قبل الروي. والتأسيس هو ألف يفصلها عن الروي حرف واحد متحرك كالألف في جاهل. والدخيل هو الحرف المتحرك الذي يفصل ألف التأسيس عن الروي كالياء في جاهل. انظر: فاخوري، محمود، موسيقى الشعر: ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) اليافي، د. نعيم، قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن، مجلة التراث العربي، العددان: ١٥ - ١٦: ١٤٨. والتوجيه هو حركة ما قبل حرف الروي الساكن كفتحة الباء من عَرَبِدْ، انظر: فاخوري، محمود، موسيقى الشعر: ١٤٧.

القيمة الموسيقية، ولا سيما إذا عرفنا أن لا علاقة بين الميم والراء واللام والنون، في حين أن خصائص حرفي الواو والياء متشابهة أو متقاربة، فكلاهما حرف ضيق، وكلاهما لهذببات واحدة [بين ٣١٠ - ٣٢٠ ذ/ثا لكل منهما] وهو ما يعيننا في دراسة الأصوات»^(١).

ويبدو لنا أن ذلك الشأن للردف يرجع جله إلى التناسب في مقدار الياء والواو الصوتي، إذ هو واحد فيهما، وهو ما أشار إليه بتساوي ذبذباتهما، فالردف بالياء أو الواو يؤدي إلى تساوي المقاطع الأخيرة في الفواصل، فكل فاصلة مردوفة تنتهي بـمـد - أو لين - فحرف موقوف عليه بالسكون؛ وهذا مقدار صوتي واحد؛ به ينضبط الإيقاع، وإليه مرجع جل القيمة الموسيقية لا إلى طبيعة الحرفين وتشابه خصائصهما وإن كان لذلك نصيب ظاهر.

وقد أشار بعض القدماء إلى ذلك التناسب في المقدار في المقاطع الأخيرة؛ كابن أبي مريم [ت بعد ٥٦٥ هـ] الذي ذكر أن مقاطع القرآن إما متشاكلة وإما متقاربة^(٢)، ثم قال: «والمقاربة نحو ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] و﴿هَذَا نَحْنُ نَحْيَبُ﴾ [ق: ٢]، فقد تقارب قوله: مجيد وعجيب من جهة أن كل واحد منهما قبل آخره ياء ساكنة قبلها كسرة فهي مدة»^(٣).

ومما يؤيد تحليلنا - أي أن جل شأن الردف مرجعه إلى التناسب في المقدار - كثرة الردف في القرآن كثرة بالغة بالقياس إلى قلة التأسيس فيه^(٤)؛ لأن مقدار المقطع الأخير في حال الردف بالياء أو الواو واحد، أما في حال التأسيس فهو متقارب بسبب الحرف المتحرك بين التأسيس والروي، ففي الردف يكون التناسب أتم، والإيقاع أحلى، قال ابن جني [ت ٣٩٢ هـ]: «وكلما جاور حرف المد الروي كان أنس به، وأشد إنعاماً لمستمعه»^(٥).

والحاصل أن لما قبل الروي من أحرف الفاصلة أهمية كبيرة في تناسب الفواصل، ولا سيما للردف الذي روعي أكثر من الروي. ولم يكن ذلك المعاصر الذي نقلنا عنه أول من جازف - كما عبر - في القول بتلك الأهمية والتنبيه عليها؛ لأن القدماء أدركوها وإن لم

(١) السابق، والصفحة نفسها. ويقصد بـذ/ثا: ذبذبة في الثانية.

(٢) انظر: ابن أبي مريم، الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها: ١: ٢٢٦.

(٣) السابق، والصفحة نفسها.

(٤) عدد الفواصل المؤسسة كما أحصاها صاحب الفاصلة في القرآن ٩٠، وعدد المردوفة ٥٢٠٣، انظر: الفاصلة في القرآن: ٣٥١. وتوجب الأعداد التفصيلية التي ذكرها أن يكون عدد المردوفة ٥٢٠٢.

(٥) ابن جني، الخصائص: ١: ٢٣٤، ويعني بأشد إنعاماً أكثره رقة صوت.

(٦) انظر: الحسناوي، محمد، الفاصلة في القرآن: ٣٥٦.

يصرحوا بها كما تبين فيما نقلناه عن ابن أبي مريم، بل أدركها من سبقه من أصحاب توجيه المتشابه كالخطيب الإسكافي وغيره، فليس صحيحاً أن القدماء لم يتنبهوا إلى ظاهرة الردف كما ذكر صاحب الفاصلة في القرآن^(١)، فقد وجه أصحاب توجيه المتشابه بالردف آيات عديدة كما سيتبين فيما سنمثل به من مراعاة العدول لهذه الصورة من تناسب الفواصل.

أ - العدول بالمبدلات :

فمن أمثلة العدول بالمبدلات لمراعاة هذه الصورة من التناسب قوله تعالى في سورة الصافات ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الْأُطْرَفِ عَيْنٌ﴾ [الصافات: ٤٨] وفي سورة ص ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الْأُطْرَفِ أَنْزَابٌ﴾^(٢) [ص: ٥٢] فعدل عن ﴿عَيْنٌ﴾ إلى ﴿أَنْزَابٌ﴾.

نبه الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانى - على أن التعبير بـ ﴿عَيْنٌ﴾ في الصافات لمراعاة فواصل الآيات التي جاءت مردوفة أو آخرها بالياء أو الواو، وأن القصد التوفقة بين الألفاظ مع صحة المعاني^(٣). فمن الآيات التي اكتنفت الآية :

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ﴾

بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾

لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾

وَعِنْدَهُمْ قَصْرِتُ الْأُطْرَفِ عَيْنٌ ﴿٤٨﴾

كَأَنَّهُمْ بَيضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ الآيات [الصافات: ٤٥ - ٥٠].

أما العدول إلى التعبير بـ ﴿أَنْزَابٌ﴾ في سورة ص فلأن السورة بُنيت فواصلها على أن تُردف بالألف كما ذكر الخطيب الإسكافي وتابعه الكرمانى^(٤). والمراد معظم فواصلها لا كلها، والمهم أن ما اكتنفت الآية من ذلك كثير، فتأكدت مناسبة العدول، ومن ذلك المكتنف :

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٩٩، والبرهان: ٣٢٠.

(٢) انظر: المصدرين السابقين، والصفحة نفسها فيهما.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٩٨ - ٣٩٩، والبرهان: ٣٢٠.

جَنَّتٍ عَدْنٍ مُمْنَحَةٍ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٥﴾

مُتَكِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥٦﴾

وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ أَرْبَابٌ ﴿٥٧﴾

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٨﴾

إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ ﴿٥٩﴾ ﴿الآيات [ص: ٤٩ - ٥٤]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] وفي سورتي الأحزاب والفتح ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾^(١) [الأحزاب: ٢٧، والفتح: ٢١] فعُدل عن ﴿مُقْتَدِرًا﴾ إلى ﴿قَدِيرًا﴾.

أما آية الكهف فنوسب بفاصلتها ما بُنيت عليه أكثر فواصل السورة من وقوع حرف متحرك قبل الروي، وأكثر ما اكتنف الآية كذلك أيضاً، ومنه:

﴿..... لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٤٢﴾

..... وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٤٣﴾

..... وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

..... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

..... وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

..... فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

..... بَلْ زَعَمْتَ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴿الآيات [الكهف: ٤٢ - ٤٨]

وأما العدول إلى ﴿قَدِيرًا﴾ في آيتي الأحزاب والفتح فاستدعته مناسبة الفواصل في كل من السورتين؛ إذ بُنيت فواصل كل منهما على أن تكون مردوفة بياء أو واو، لم تخرج عن ذلك فاصلة واحدة منهما، فمما اكتنف آية الأحزاب من ذلك:

﴿.....وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ﴿٥٥﴾

.....فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٥٦﴾

.....وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٧﴾

.....سَرَّاهَا جَمِيلًا ﴿٧٨﴾

.....أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٩﴾ ﴿الآيات [الأحزاب: ٢٥ - ٢٩]

ومما اكتنف آية الفتح :

﴿..... وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

..... وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

..... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

... ثُمَّ لَا يَجْدُوكَ وَإِلَّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ﴿الآيات [الفتح: ١٩ - ٢٣]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة طه ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا.....﴾ الآية [طه: ١٣] وفي سورة ق ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾^(١) [ق: ٣٩] فعدل عن التعريف بالإضافة في ﴿غُرُوبَهَا﴾ إلى التعريف بآل في ﴿الْغُرُوبِ﴾.

أما آية طه فحاصل توجيه الخطيب الإسكافي وأبي جعفر بن الزبير لها أن ﴿غُرُوبَهَا﴾ ليس فاصلة لها، ومع ذلك فهو مناسب لفواصل أكثر آيات السورة والتي اكتنفته أيضاً، لأن مقاطعها؛ أي نهايات فواصلها، ألف مفتوح ما قبلها^(٢)، نحو:

﴿..... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٧٨﴾

لَكَانَ لِرَآءَا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿٧٩﴾

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿٨٠﴾

(١) انظر: سند، السيد محمود، أوجز البيان: ٩٨.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤٤٨، والبرهان: ٣٣٦ - ٣٣٧، وملاك التأويل: ٢: ٦٨٩ - ٦٩٠، والعقد الجميل: ١٠٨.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٤٤٨، وملاك التأويل: ٢: ٦٩٠.

(٤) درة التنزيل: ٤٤٨، وفي الأصل فواصلها بغير فاء رابطة لجواب "أما"، وفيه أيضاً الجلود بالجمع،

..... وَرَزَقُ رَبِّكَ حَيْرًا وَابْقَى ﴿١٣١﴾ [طه: ١٢٨ - ١٣١]

فهو شبيه بالفاصلة لجواز الوقف عليه. ومهما يكن من أمر، فإنه غير مردوف، وكذلك الفواصل غير مردوفة.

وأما العدول إلى ﴿الْغُرُوبِ﴾ فلمناسبة الفواصل المردوفة، قال الخطيب الإسكافي: «وأما سورة ق [فواصلها] مردوفة بواو أو ياء؛ كالسجود و[الخلود] والقعيد والعيتد والمريح، والغروب متى ذكر علم أنه غروبها، فكان ذلك أشبه بالفواصل التي تقدمتها»^(١). وذكر أبو جعفر بن الزبير أنه لمناسبة ﴿لُغُوبٍ﴾ الذي هو فاصلة الآية المتقدمة^(٢). وأجمل الكرمانى القول في أن ذلك التعبير مراعى به فواصل السورة. وكل ذلك صحيح، بيد أن أصحه وأبينه ما قاله الخطيب الإسكافي، وهو أعمه أيضاً؛ لأن فواصل السورة كلها مردوفة، فمما اكتنف الآية:

﴿..... أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾

..... وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾

فَاصِرٍ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾

وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ الآيات [ق: ٣٧-٤١].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] وفي سورة الكهف ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢] فعُدل عن ﴿كَبِيرًا﴾ إلى ﴿حَسَنًا﴾. وقد بينا وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لتناسب الموازنة الإفرادية، وثمة وجه صوتي آخر يتعلق بمراعاة العدول لتناسب الفواصل فيما قبل الروي؛ هذا موضع بيانه.

قال الكرمانى: «خُصت هذه السورة بقوله ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾، وخصت سورة الكهف بقوله ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ لأن الأجر في السورتين الجنة، والكبير والحسن معاً من أوصافها، لكن

والصواب ما أثبتناه في الموضعين.

خست هذه السورة بالكبير موافقة لفواصل الآي قبلها وبعدها، وهي: حصيراً وأليماً وعجولاً، وكلها وقع قبل آخرها مدة. وكذلك في الكهف جاء على ما تقتضيه الآيات قبلها وبعدها، وهي: عَوْجاً، أبداً، وولداً، وكلها وقع قبل آخرها متحرك»^(١).

فمدار المتشابهين على معنى واحد، وبه يتأكد أن العدول لمراعاة المناسبة فيما قبل الروي، ففواصل الإسراء مردوفة، ومما اكتنف الآية من ذلك ما ذكره الكرمانى، وهو:

﴿..... وَجَعَلْنَاهُمْ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾

... وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩

وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠

....وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: ٨-١١].

أما فواصل آيات الكهف فغير مردوفة، وإنما وقع قبل آخرها متحرك، فمما اكتنف الآية من ذلك ما ذكره الكرمانى، وهو:

﴿..... وَلَوْ يَجْعَل لَّهُمُ عَوْجًا ۝١١﴾

... وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝١٢

مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ۝١٣

وَنَذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝١٤﴾ [الكهف: ١-٤].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وفي سورة مريم ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾^(٢) [مريم: ٧٦] فعدل عن ﴿أَمَلًا﴾ إلى ﴿مَرَدًّا﴾.

وفواصل سورة الكهف كما تقدم في المثال السابق قبل آخرها متحرك أو اثنان، فجاء التعبير بـ﴿أَمَلًا﴾ في فاصلة الآية مناسباً لما اكتنفها من فواصل، فمن ذلك المكتنف:

﴿..... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝١٥﴾

..... وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝١٦﴾

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٩٠.

وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٧٧﴾

بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ تَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٧٨﴾ ﴿الآيات [الكهف: ٤٥ - ٤٨].

أما فواصل الآيات التي اكتنفت الآية المشابهة في سورة مريم فأكثرها قبل آخره حرف ساكن، فاستدعت مناسبتها التعبير بـ ﴿مَرَدًّا﴾، لأن الدال المشددة هي في النطق دال متحركة وقبلها دال ساكنة، قال تعالى:

﴿..... هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَءْيَا ﴿٧٤﴾

..... فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾

. وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

وَقَالَ لِأَوْتَيْتَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾

أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾

وَنَمُدُّ لَكُم مِّنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴿الآيات [مريم: ٧٤ - ٧٩]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحجر ﴿فَأَلْبَعَهُمْ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨] وفي سورة الصافات ﴿فَأَلْبَعَهُمْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] فعدل عن ﴿مُبِينٌ﴾ إلى ﴿ثَاقِبٌ﴾. وقد تقدم وجه مناسبة ذلك في مراعاة العدول لمشاكلة الصوت للمعنى، وثمة وجه صوتي آخر يتعلق بتناسب الفواصل فيما قبل الروي؛ هذا موضع بيانه.

أما سورة الحجر ففواصلها مردوفة بياء أو واو، كلها كذلك، فناسب التعبير فيها بـ ﴿مبين﴾، ومما اكتنفت الآية:

﴿وَرَبَّتْهَا لِلنَّظِيرِ ﴿١١﴾

..... وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٢﴾

... إِلَّا مِنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَأَلْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

..... وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٤﴾

..... وَمَنْ لَّسْتُمْ لَكُمْ بِرَزْقَيْنَ ﴿١٥﴾ ﴿الآيات [الحجر: ١٦ - ٢٠]

وأما آية الصافات فاكتفتها جملة آيات مؤسسة الفواصل، فاستدعت مناسبتها العدول عما وقع في الحجر إلى التعبير بالفاصلة التي فيها ألف تأسيس ﴿ثاقب﴾، فمن ذلك المكتنف:

﴿وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾

..... ﴿وَيَقْدُفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾

..... ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾

..... ﴿فَلْيَتَعَرَّجْ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

.. إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات: ٧ - ١١]

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة يونس ﴿وَأِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾ الآية [يونس: ٤٦] وفي سورة غافر ﴿كَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾^(١) [غافر: ٧٧] فعُدل عن الاسم ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ إلى الفعل ﴿يُرْجِعُونَ﴾.

أما الاسم في آية يونس فليس فاصلة لها، بل وقع في أثنائها، وهو شبه فاصلة إذا وقف عليه، وعندئذ يناسب قوله ﴿بَيْنَهُمْ﴾ الوارد في أثناء الآية السابقة له مناسبة الفواصل الداخلية، قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرَّ يَلْشَرُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۝٤٥﴾

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝٤٦﴾

﴿وَأِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ۝٤٧﴾

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٨﴾ [يونس: ٤٥ - ٤٦]

وأما العدول إلى التعبير بالفعل المسند إلى ضمير الجمع الواو في آية غافر فاستدعاه التناسب في ردف الفواصل؛ لأن الآية مكتنفة بآيات كثيرة مردوفة الفواصل بياء أو واو، ومن ذلك:

﴿..... ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥﴾

﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾

﴿كَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ ۝٧٧﴾

(١) البرهان: ٢٤٩.

..... وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

..... مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴿ الآيات [غافر: ٧٥ - ٧٩]

فلم يكن ليناسب هنا التعبير بالاسم الذي عُبر به في يونس، أي أنه لولا العدول لما تحقق التناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة هود ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ﴾ [هود: ٢٢] وفي سورة النحل ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩] فعُدل عن التعبير بصيغة التفضيل إلى صيغة الفاعل. وقد بينا وجه المناسبة المعنوية لذلك في العدول بمبدلات الصيغة الاشتقاقية، ونبين هنا وجه المناسبة الصوتية المتعلقة بالفواصل ليكون ذلك دليلاً على أن القرآن لا يعدل عن التشابه مراعاة لإحدى المناسبتين دون الأخرى، أي أنه لا يراعي الفواصل إلا وهو يحافظ على صحة المعنى.

ووجه ذلك كما أبدى الخطيب الإسكافي - ونقل عنه الكرمانلي - أن الفاصلة في آية هود تقدمتها فاصلتان ﴿يُبْصِرُونَ﴾ و ﴿يَقْتَرُونَ﴾ ما قبل الواو والنون فيهما حرفان متحركان لا يعتمدان على ألف قبلهما^(١)، قال تعالى :

﴿... مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿٢١﴾

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [هود: ٢٠ - ٢٢]

فجاء التعبير بـ ﴿الْآخَسُونَ﴾ هنا مناسباً أتم مناسبة.

أما فاصلة آية النحل فتقدمتها فاصلتان قبل النون والواو فيهما حرفان متحركان مسبوقان بألف، وهما بوزن واحد ﴿الْكَافِرِينَ﴾ و ﴿الْعَافِلِينَ﴾ كما نبه الخطيب الإسكافي ومن نقل عنه وتابعه^(٢).

ونبه أبو جعفر بن الزبير على أن فاصلة الآية مسبوقة بفواصل اتفقت في اسم الفاعل المجموع جمعاً سالماً^(٣)، قال: «فتأمل هذه الفواصل واتفاقها في اسم الفاعل المجموع جمع السلامة في قوم متفقي الأحوال في كفرهم إلى أن ختم وصفهم وما قصد من ذكرهم

(١) انظر: العقد الجميل: ١١٦.

(٢) انظر: السابق: ٩٤.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٢١٩ - ٢٢٠، والبرهان: ٢٢٠.

بقوله ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩] فتناسب الآي في السياق والفواصل، وتحتمت بمثل ما به بدئت، ولم يكن ليناسب ما ورد هنا لفظ المفاضلة، إذ ليس في الكلام ما يستدعي ذلك؛ لا من لفظه ولا من معناه^(١).

والفواصل التي نبهوا عليها في الآيات :

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ ١٥٥

..... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٥٦

..... وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ١٥٧

..... وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ ١٥٨

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَسِرُونَ ﴿١٥٩﴾ [النحل: ١٠٥-١٠٩]

فمراعاة لهذه المناسبة مع المناسبة المعنوية عدل عن التشابه.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وفي سورة النحل ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] فعدل عن التعقيب بـ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إلى التعقيب بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقد بينا وجه المناسبة المعنوية لذلك في العدول بالمبدلات التعقيبية، وههنا وجه صوتي يتعلق بتناسب الفواصل، ويؤكد كما تقدم في المثال السابق أن مراعاة القرآن لتناسب الفواصل في عدوله عن التشابه لا تكون إلا مع مراعاته للتناسب في المعنى.

أما آية إبراهيم فجاءت بين آيات فواصلها مردوفة بالألف، فكان تعقيها بما عقت به مناسباً لذلك، فمن تلك الآيات قوله تعالى :

﴿.....مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ ٣١

.....وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ٣٢

.....وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ٣٣

(١) انظر: المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة، وانظر أيضاً: الألوسي، روح المعاني: ١٤: ٢٣٩.

وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾

..... وَأَجْنَبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٦﴾ [إبراهيم: ٣١ - ٣٥]

وأما آية النحل فجاءت بين آيات فواصلها مردوفة بالواو أو الياء - وفواصل السورة كلها كذلك - فاستدعى التناسب في الردف العدول عما عقت به آية إبراهيم إلى التعقيب بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، لأن كلمة الفاصلة فيه مردوفة بالياء، فمن الآيات التي اكتنفت الآية :

﴿..... وَإِلَّا تَجِبْهُمْ يَصُدُّونَ ﴿٣٧﴾

..... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٨﴾

.. وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾

..... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴿٤٠﴾

.... لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٤١﴾ [النحل: ١٦ - ٢٠]

٢ - العدول بالزوائد والنواقص :

ومن أمثلة العدول بالزوائد والنواقص لمراعاة هذه الصورة من تناسب الفواصل قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وفي سورة طه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ ^(١) [طه: ١١٦] فعدل عن زيادة ﴿وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى نقصه من آية طه.

أما آية البقرة فجاءت بين آيات فواصلها مردوفة بالواو أو الميم - وفواصل السورة كلها كذلك أيضاً - فكانت الزيادة فيها مطلوبة، لكي تقع كلمة ﴿الْكَافِرِينَ﴾ المردوفة بالياء فاصلة فتناسب ما اكتنفتها، ومن ذلك المكتنف :

﴿..... إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

.... وَأَعْلَمُ مَا بُدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٣﴾

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٤﴾

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥١٣.

....وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾

..... وَلَكُرْفِي الْأَرْضِ مُسْتَفْرَّوْمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ [البقرة: ٣٢-٣٦]

وأما آية طه فجاءت بين آيات فواصلها غير مردوفة، فاستدعى تحقيق التناسب العدول إلى نقص ﴿وَأَسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ لتقع كلمة ﴿أَبَى﴾ الخالية من الردف فاصلة، ومن ذلك المكتنف:

﴿.....وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٧٤﴾﴾

.....وَلَمْ يَحْدِلْهُ عِزْمًا ﴿١٧٥﴾﴾

وَأَذَقْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٧٦﴾﴾

..... فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١٧٧﴾﴾

..... أَلَّا تَجْمَعُ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٧٨﴾﴾ [الآيات: ١١٤ - ١١٨]

فلو عُبر هنا بما عُبر به في آية البقرة لما ناسب، وإنما تحقق التناسب بالعدول.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة طه ﴿ولقد - أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي - فاضرب لهم...﴾ الآية [طه: ٧٧] وفي سورة الشعراء ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾^(١) [الشعراء: ٥٢] فعدل عن نقص «إنكم متبعون» إلى زيادته.

ولم يقع قوله ﴿بِعِبَادِي﴾ في آية طه فاصلة، فليس في الآية ما يستدعي الزيادة من جهة تناسب الفواصل.

أما آية الشعراء فجاءت بين آيات فواصلها مردوفة بواو أو ياء - وكل فواصل السورة كذلك أيضاً - فاستدعى التناسب العدول إلى زيادة ﴿إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ لتكون فاصلة للآية، وليقع فيها الردف كما وقع فيما اكتنفها، ومن ذلك المكتنف:

﴿.....إِلَى رَبَّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٥﴾﴾

.....أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(١) السابق، والصفحة نفسها.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٥٦﴾

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٧﴾

.....إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴿الشعراء: ٥٠ - ٥٤﴾

يتبين بما سبق أن العدول عن التشابه مقصود به تحقيق التناسب في الفواصل؛ في رويها أو فيما قبله - وقد يجتمعان - ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الأنسب له من نسق الفواصل التي اكتفتها، ومما يؤكد ذلك القصد أن العدول لم يقع في كلمة الفاصلة دائماً، بل وقع كما مر بنا - ولو على قلة - في التركيب في أثناء الآية بإبدال، أو زيادة أو نقص، أو تقديم أو تأخير، ليؤثر على كلمة الفاصلة ويجعلها مناسبة للفواصل التي اكتفتها.

وصفوة القول أن القرآن الكريم يعدل عن التشابه لمراعاة التناسب في نظم الألفاظ والأصوات والفواصل بصور متنوعة؛ كالمشاكلة والموافقة والموازنة وغيرها مما سبق بيانه، ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الأنسب له من آيته أو سوره. على أن هذه الصور التي هي أوجه من أوجه التناسب الذي يراعيه العدول والتي قد يجتمع بعضها أو كلها في المثال الواحد، لا بد أن تقترن بوجه من التناسب المعنوي كما تأكد بكثير من الأمثلة التي مثلنا بها في هذا الفصل وفي سابقه، وبهذا تبلغ مراعاة العدول للتناسب اللفظي والصوتي قمة الإعجاز؛ لأنها تجمع بين حلاوة الإيقاع وحسن البيان والترابط بين أجزاء النص وغيرها، وبذلك تتمكن الكلمة المعدول إليها - وبه يتضح ويثبت تمكن المعدول عنها - تمكناً يدل دلالة قاطعة على أن ذلك التناسب المعجز في النظم مقصود بالعدول قصداً، وعلى أنه لولا العدول لما تحقق التناسب ولا الإعجاز.

الخاتمة

هذا بحث أدرناه على علم من علوم القرآن الكريم وتفسيره؛ علم "المتشابه اللفظي"، علم له أهمية خاصة في الإعجاز البياني، ومكانة متميزة من النظم القرآني، لأنه يقوم أساساً على دراسة الاختلاف - وهو ما سميناه عدولاً - فيما تشابه من ألفاظ الآيات بالمقارنة بينها؛ ليكشف عن سر التعبير بكل لفظ مما اختلف في موضعه.

وقد جاء البحث في ثلاثة فصول؛ نظري وتطبيين، تناول النظري قضايا المتشابه اللفظي، فخصص القضية الأولى لدلالة المصطلح، وعرض فيها دلالة المتشابه في اللغة، ثم دلالة لفظي في كتب المصطلح، ثم دلالاته عند المصنفين فيه، وانتهى إلى أنهم يريدون به كل تكرير لفظي؛ محض متطابق أو غير محض متقارب، بيد أن شرط الثاني عندهم أن يُخشى التباسه على من يحفظ القرآن، وشرط الأول توهم عدم الفائدة من التكرير، مما يعني أنهم التزموا الدلالة اللغوية للمتشابه التزاماً دقيقاً، من حيث كانت تفرق بين متشابه عام هو المتماثل، وآخر خاص هو المتقارب إلى درجة اللبس. وأظهر البحث قصور الدلالة التي رسمها أهل المصطلح عما هي عليه عند المصنفين، لأن الأولين قيدوا المتشابه بما وقع في القصة الواحدة، وبأن يكون جملة فما فوقها، على حين أوسع المصنفون للمتشابهات الواقعة في القصة وفي غيرها، وتناولوا ما وقع في الجملة وفيما دونها ولو كان كلمة.

وبين البحث أن المصنفين خصوا الجزء المختلف من التكرير غير المحض باسم "العدول" في بعض أمثلتهم، وأنهم عنوا به العدول عن التشابه؛ أي أنهم أرادوا العدول عن التكرير اللفظي المحض أو المتطابق، ولهذا اختار تلك التسمية وعممها في هذه الدراسة.

وخصص القضية الثانية لأنواع المتشابه اللفظي، فعرضها من حيث شدة التشابه ونمطه وعدوله وموضوعه، أما من حيث شدة التشابه فبين أن ثمة نوعين: متشابهاً يعم كل تكرير، ومشتبهاً يختص بالملتبس.

وأما من حيث النمط فبين أن ثمة متشابهات نمطية؛ يكون فيها الجزء المتطابق من التكرير غير المحض أشبه بنمط لفظي، لأنه يعاد بنفسه مرتين أو أكثر، وأخرى غير نمطية. وأن النمط قد يقوى وقد يضعف بحسب مرات التكرير، وقد يكون مفرداً؛ وقد يكون مركباً من عدة أنماط، وقد يطول ويقصر.

وأما من حيث العدول فبين أن ثمة متشابهات يقع العدول في طرفها وأخرى في أثنائها، وأنه قد يكون طويلاً وقد يكون قصيراً. وأنه ينقسم من جهة أخرى إلى عدول مُبدلات؛ تُبدل فيه كلمة في أول المتشابهين بأخرى في ثانيهما، أو حرف في الأول بأخر في الثاني، أو صيغة في الأول بأخرى في الثاني، ونحو ذلك، وإلى عدول زوائد ونواقص، وإلى عدول مقدم ومؤخر. على أن البحث راعى ترتيب المصحف في تعيين العدول ونوعه؛ فإذا كان في ثاني المتشابهين بالنظر إلى ذلك الترتيب نقص مما في الأول كان العدول من النواقص.

وأما من حيث الموضوع فبين أن المتشابهات قد تكون قصصية حينما تقع في قصة واحدة أو أكثر، وقد تكون غير قصصية؛ فتقع في موضوع واحد أو أكثر؛ أو في موضوع وقصة.

وخصص البحث القضية الثالثة لأغراض التشابه اللفظي، ونهج فيها نهجاً مغايراً لنهج القدماء؛ بأن تناولها من جهتي التكرير والعدول، لانفراد كل منهما بأغراض مع اشتراكهما في أخرى، وأجمل الأغراض في التأكيد والترنم من جهة التكرير، والتفنن وزيادة الفائدة من جهة العدول، والتنبيه والتصوير وترابط أجزاء النص من جهة التكرير والعدول معاً. ونبه على أن كلها عام إلا التصوير والترابط، فالأول خاص بالقصة الواحدة المكررة في السور المختلفة، والثاني خاص بالسورة الواحدة.

وقد ركز البحث في أغراض التكرير على المكررات المتباعدة الموزعة على السور، وأولى أهمية خاصة لتطابق المحكيات في القصص المختلفة لعدم تناوله قديماً وحديثاً إلا نادراً، ولأن هذا النوع من المكررات يُشكل من حيث هو استنطاق أشخاص مختلفين بلفظ واحد، فبين طرافة هذه المكررات في تحقيق تلك الأغراض، وحاول الخروج من إشكالها بما شرح من أغراضها.

وأوضح البحث في أغراض العدول أن في كل عدول تفنناً في طرق الأداء؛ يثبت البلاغة ويدفع الملل ويحقق المتعة، وأن في كل عدول زيادة فائدة؛ تبين المعنى الأصلي أو تتممه؛ كتفصيل المجمل وتخصيص العام ورفع التوهم وغيرها.

ويبين أن التكرير والعدول يشتركان في التنبيه على أشياء معنوية وفنية، أهمها التناسب المعجز في النظم، وأن جل هذا التنبيه مستفاد من العدول، ولهذا كان جل بحث المتشابه اللفظي دائراً على دراسة ذلك التناسب وإثباته من جهة العدول.

وخصص البحث القضية الرابعة لمصنفات المتشابه اللفظي، فبدأ بمصنفات الجمع وثنى بمصنفات التوجيه، ودرس بواعث التصنيف في النوعين، وطرائق المصنفات، ومنهج التوجيه. وخلص إلى أن العناية بنوعي التصنيف كانت قليلة، بل لم يتجاوز ما فقد وطُبع من مصنفات التوجيه الأحاد وكانت هذه متأخرة الظهور قليلة المادة بالقياس إلى مصنفات الجمع في الأغلب، مع أن هذه الأخيرة لم تجمع من المتشابه إلا أقله، إذ إن المتشابهات تقع في ثلث آيات القرآن الكريم.

ويبين أن التصنيف في النوعين استأثر به القراء أو من كان لهم دراية بالقراءة، وأن مما بعثهم على التصنيف في النوعين التقوية على حفظ القرآن، والرد على الطاعنين فيه، وإثبات التناسب المعجز، إلا أن هذا الباعث الأخير كان خاصاً بمصنفات التوجيه.

وأوضح أن مصنفات الجمع جرت على طريقتين: العقد؛ أي مجرد ضم المتشابهات بعضها إلى بعض، والنظم؛ أي جمعها في منظومات شعرية، وأن هاتين الطريقتين اشتركتا في الترتيب على السور والحروف، على حين استقلت طريقة العقد بالترتيب على الأبواب وبالجمع بين الترتيب على السور والحروف. ويبين أن مصنفات التوجيه رُتبت على السور، وروعت فيها طرائق فرعية كالبسط والاختصار وما تعلق بهما. وكان منهجها العام في التوجيه يُراعى فيه إبداء الفرق المعنوي بين المتشابهين في الأغلب، ثم ربط هذا الفرق بالمناسبة النصية كترتيب المصحف ومناسبة السورة والسياق، وهي مناسبة يُبين بها وجه اختصاص كل من اللفظين المعدول عنه وإليه بآيته من حيث لفظه أو معناه.

وأفرد البحث الفصلين الثاني والثالث لدراسة العدول عن التشابه دراسة تطبيقية، فجردناه لأهم أغراضه: إثبات التناسب في النظم، لأن جل البحث في توجيه المتشابه يدور على هذا الغرض.

فدرس في الفصل الثاني العدول عن التشابه اللفظي للتناسب المعنوي، ورتب أمثله على أنواع العدول الأساسية: المبدلات والزوائد والنواقص والمقدم والمؤخر، وراعى في كل منها تقسيمات فرعية.

ودرس في الفصل الثالث العدول عن التشابه اللفظي للتناسب اللفظي والصوتي، ورتب أمثله على صور التناسب اللفظي والصوتي التي أبدتها المادة، كتناسب المشاكلة والموافقة ومشاكلة الصوت للصوت والصوت للمعنى وتناسب الموازنة والتناسب في المقدار، وغيرها، وأتبع التناسب اللفظي والصوتي بتناسب الفواصل، وراعى في أثناء تلك الصور ترتيب الأمثلة على أنواع العدول.

وقد أثبت بما مثل به في هذين الفصلين أن العدول عن التشابه مقصود به تحقيق التناسب في النظم على نحو معجز، لأنه روعيت بالعدول مناسبة ترتيب المصحف وسورة كل من المتشابهين وسياقه ونسقه الصوتي، فكانت الكلمة المعدول إليها لا تختلف في بعض المتشابهات عن المعدول عنها إلا في حرف واحد، بل إنها لم تختلف في بعض آخر إلا في حركة واحدة لمناسبة ذلك النسق الصوتي، وبهذا تبين أنه بالعدول حسب للحركة حسابها كما حسب للمعنى حسابها، لتقع كل كلمة من كلمتي المتشابهين المعدول عنها وإليها موقعها الأخص بها الأنسب لها من آيتها وسورتها، وقد أكد البحث ذلك بما بينه من تعدد أوجه التناسب وتنوعها واجتماع معنويها ولفظيها وصوتيها في مثال واحد.

وقد ظهرت للبحث نكات، وانكشفت له أسرار، يعز الوقوف عليها في غير بحث العدول عن التشابه، لخصوصيته في التنبيه عليها، وفي دفعه إلى المقارنة بين المتشابهين اللذين هما في مستوى بياني واحد، وفي كونه يتجاوز التركيز على الجملة كما في كتب البلاغة إلى العناية بكل كلمة وبكل حرف، بل بكل عنصر من عناصر النظم.

ومن هنا أتاح لنا البحث مجالاً للاجتهاد، ولا سيما في الفصل الثالث، مما يسمح بادعاء الجدة في بعض جوانب التطبيق. ويمكن ادعاؤها أيضاً فيما حاولته الدراسة النظرية من توضيح قضايا المتشابه وتفصيل القول فيها وحل بعض إشكالاتها. بل يمكن أن ندعيها على وجه العموم في إخراج بحث في علم من علوم القرآن وتفسيره علم المتشابه اللفظي، وفي تجلية مسألة من أبرز مسائل النظم القرآني، ومن أدلها على إعجازه البياني.